خاتم الرمل

فؤاد التكرلي

مدونة
Riyadh
Hamza

رواية

دار الآداب

/http://riyadhhamza.blogspot.com

خاتم الرمل

فؤاد التكرلي

خاتم الرمل

رواية

دار الآداب - بيروت

فؤاد التكرلي

خاتم الرمل

رواية

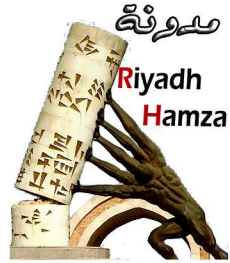

دار الآداب - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٥

. . . وأنا بمفردي، وراء المقود أسوق، لا تشغلني الوجهة الّتي أقصدها، بل احتمال نفاد الوقود وتوقّف السّيارة على حين غرّة. ولم ينفد الوقود مرّة، ولا انقطعتُ عن التفكير في احتمال ذلك؛ وهكذا يصير حدثاً ما لم يحدث.

كان الشّارع العريض الموصل بين مقرّ الشركة والجسر المعلّق، منفتحاً خاوياً، تملؤه شمس بيضاء مترجرجة، تضفي على شتاء بغداد، نغمته وبهجته. ولم أكن مكترثاً، فالحياة تجري وهي جميلة بشكل خفيّ، ولكن الأشياء تفسّر تدريجيّاً؛ أم لعلّ الأصحّ أن نقول إنّ الحياة هي الّتي تفسد ببطء، وإنّ الأشياء تبقى متشبّثة، برونق غامض مستتر؟ ربّما. ربّما. جاوزتْ السّاعة الرّابعة من بعد الظهر، وكنتُ أقترب بسرعة من ساحة كمال جنبلاط في الجادريّة على جانب الرصافة، وعليَّ أن أستدير بعد ذلك يساراً باتجاه الجسر وأن أُبعد عن ذهني ضربات البيانو تلك، الّتي انشغلتُ بها طوال ليلة أمس. يتكرّر اللّحن عشرات المرّات؛ يتكرّر. . يتكرّر؛ حتّى لتظنّه يدخل الجسد ويسري في الدّماء. ثمّ يتوجّب بعدئذٍ، خلال اندفاع بغير وجهة، أن نتدبر أمر إسكات تلك الموجات الصوتيّة الّتي ماتزال تخدش جدار النّفس. ومن النّظر خارجياً إلى هذه العمليّة، يمكننا أن نجد داخلها اختلالاً للقيم والموازين الأخلاقية، غير مسموح به حسب تقاليد الصمت بعد منتصف اللّيل في حيّ الحارثيّة وفي دار رئيس المحكمة بالذّات.

ولم أستدر مع انحراف السّاحة إلى اليسار، بل واصلتُ انطلاقي

قدماً، منتشياً بالنغمات وبالهواء البارد يلامس وجهي. هذه الطريقة في السّير إلى أمام تبدو لي مجدية أكثر مما كنتُ أعتقد وتعتقد أمّي سناء. لا انحراف إلى اليمين ولا إلى الشّمال؛ لأنّ الصّراط كان مستقيماً؛ لم يقولوا إنّه لم يكن مستقيماً. أبداً. ومع «أبداً» ترفع كفّيها النّاصِعَتَي البياض أمامها فتضعهما متوازيتيْن: هكذا، يا بنيّ. ولهذا السّبب ولأنّي لاأزال، كما أعهد، محبّاً لها، سأزور قاعة الرّواق في شارع السعدون لمشاهدة معرض الرّسوم، وستصير الوجهة معلومة منذ اللّحظة.

لكن.. ما معنى أن يتخذ معرض الرّسوم هذا صفة الوجهة النهائيّة، في الوقت الّذي لم يكنه؟

هو، إذن، خطوة إلى أمام فقط، خطوة مغلقة؛ لا نهاية لها، لأنّها لم تكن سوى رغبة. مثل رغبتي، أمس واليوم، في زيارة خالي رؤوف ومبادلته الحديث. أردتُ أن أراه لحاجة لم أعرفها. إذ، معه، يصير أيّ شيء خارقاً، فينزاح القلق لبعض الوقت.

قطعتُ، خفيفاً، شوارع طويلة لا أسماء لها أعرفها، وانتهيتُ عبر بنايات تُبنى وشوارع أخرى مجهولة، إلى ذلك النّصب البليد، واقفاً أو معلّقاً من ساقيه، وسط السّاحة أمام مئذنة صامتة. أية مسخرة هندسية!

ومن شدّة الإصرار على تجاهل هذا الشّوه الوطنيّ، اتجهتُ، دون انتباه، نحو مدخل نادي العلوية؛ وانطلقتُ لاإرادياً، في الزّقاق المؤدّي إلى مربض السّيارات. كان ذلك أمراً ملتبساً ومزعجاً حقاً. توقفتُ لحظات على جانب، ثمّ أسرعتُ، متجاهلاً حارس المربض الّذي ركض نحوي يحيّيني، وخرجتُ من الباب الآخر. لا شيءَ خطيراً يمكن أن يحدث ما دمنا على يقظة وحذر.

وجدتُ، لحسن الحظّ، مكاناً لإيقاف السّيارة لا يبعد كثيراً عن المعرض؛ وحينما تهيّأتُ لأغادر مقعدي.. تردّدت. لم يبدُ لي الجوّ، عموماً، وثيق الصّلة براحة القلب؛ فمكثتُ في مكاني أنصتُ إلى ضربات البيانو تأتي خافتة من دفائن النّفس. تشدو.. تشدو.

خلال سنين، استمَعَ لي خالي رؤوف بولع وأنا أقصُ عليه حكايات طفولتي الغريبة. كان ينسلّ إلى بيتنا، فيلتمُّ على نفسه في زاوية من الصالة الكبرى؛ وكانت أمّي سناء تبجّله بورع؛ أخوها الكبير، الشاذّ قليلاً، المستكين، ذو الماضي الغامض المحاط بالرهبة.

فتحتُ باب السيّارة وتركتها خلفي سائراً، دون انتباه، في الاتجاه المعاكس لمكان المعرض. كان خجولاً على الدّوام؛ وحين أخذ يواسيني بعد غياب أمّي سناء، كان الخجل يفترسه وهو حريص على ألاّ تؤذيني كلماته المهموسة المتقطّعة «.. إنّ كلّ هذه الأمور في الحياة، لا علاقة حقيقية تربطها بنا، رغم أنّها تغرز سكّيناً في الكبد. نحن عابرون؛ مثلهم.. مثلهم. وهم مثلنا».

أية طريقة كانت لتعزية طفل في التّاسعة! رائعة وغير مفهومة؛ لا تشبهها إلاّ هذه المسيرة المضادة للوصول إلى المعرض.

كانت أبوابه مفتوحة وبعض المشاهدين ينتشرون في نواحي القاعة ذات الضوء الخافت؛ وكان دخولي إليه مرحاً، يحمل إلى الأحشاء حبوراً لا يُعرَّف. في الأساس، لا يهمّ ما أراد الفنّان / الفنّان أن يعمل وما مدى قدراته وقيمته. هذا مخلوق بشريّ يتجابه مع المطلق، ويريد، كالطفل، أن يمسكه مسك اليد. ورحتُ، رغم حالتي الملتبسة كالعادة، أتابع الرّسوم بعناية. كنتُ أعرف الرسّام شخصيّاً

وقد اطلعتُ على خطواته الفنّيّة منذ فترة؛ وكنتُ أشعر بأنّه، في مجموع أعماله، يبعث فيَّ تلقائياً بعض الأفكار الملتبسة مثل حالتي. إذ، ماذا ننتظر من مجابهة بين إنسان فانٍ وبين جبروت المطلق بكلّ أبعاده، غير الهزيمة؟

ولكن.. لا. مع ذلك، هنالك فرق كبير بين هزيمة وأخرى. هذا فنّان تهاوى عند العتبة؛ وذلك آخر أتعب المطلق قبل أن يسقط. أتعب المطلق يعني أنّه كاد أن ينال منه؛ أو لعلّه نال منه فعلاً. مثل رافائيل وسيزان. ولِمَ لا؟

ـ مساء الخير

وفي اللّوحة يمكن أن نستقرئ ونتلـمّس حدود المعركة وجوانب الشدّة والتراخي والتقدّم والتراجع. عند ذاك تَبِينُ جليةً ملامح الفنّان ومزايا شخصيته الفنّية.

ـ قلنا مساء الخير.

إذ، ليس مطلوباً منه، مع حساب قوى الأطراف المتصارعة، أن ينتصر حقاً. لا يجب أن نصدّق أنّ من الممكن الانتصار. هذا وهمٌ، يسحق كلّ القدرات الفنّية. يمكننا..

ـ مساء الخير. ما هذا؟

كانت تكلّمني؛ فتاة لا أعرفها.

ظننتُ أنّي كنتُ أقف حائلاً بينها وبينَ اللّوحة، فتراجعتُ. قطعتْ عليَّ الطّريق ووقفتْ أمامي. كنا منحشرين في زاوية عند الرّكن الشّمالي من المعرض.

ـ أريد أن أكلّمك. لا تتظاهر بأنّك لم تعرفني.

وكنتُ، في الحقيقة، أتساءل بهدوء.. أرايتُ هذه الفتاة من قبل؟

ـ إنّك لا تجيب حتّى على التحيّة! كأنّك تعتقد أنّ ذلك حلّ. اسمع. لقد رأيتك صدفةً، وأنا أريد أن أقول لك بضع كلمات لا غير، وسأقولها رغم الظروف السيّئة.

ولعلّها رأتْ في وجهي انطباعاً بما يشبه الغباء أو عدم الفهم.

ـ أنت.. أنت لم تعرفني حقاً؟ أنا سلمى. دكتورة سلمى. ابنة عمّ آمال. هل غيَّرني الشعر القصير هكذا؟

أدركتُ، آنذاك، أنّ شيئاً ما أخفى عنّي هويّتها. كنا في ناحية من القاعة ليس فيها غير لوحة واحدة، فلم يلتفت لذلك أحد إلينا. أظهرتْ قَصَّةُ الشّعر تكوّر خدّيها وطول عنقها؛ وبقي الجبين عريضاً والعينان السّوداوان على حالهما. يبدو أنّها صادقة.

ـ لن أطيل في الكلام يا أستاذ هاشم، فأنت حسب الظاهر، تريد أن تتملّص حتّى من الأحاديث. لستُ راغبة الآن في طلب شيء منك أو تقديم النّصائح إليك بشأن أمورك المستعصية. يجب الاعتراف بأنّك أتعبتَ الجميع.

كانت تضع قلادة من اللّؤلؤ حول رقبتها. لؤلؤ مزروع بالتأكيد. مضى زمن اللّؤلؤ الحقيقيّ إلى الأبد.

ـ أريد فقط أن أعمل ما أعتقد أنّه واجبي تجاه آمال، ومن المحتمل تجاهك أنت أيضاً.

ظننتُ، ربّما، بأنّي عازم على التحرّك للابتعاد عنها، فرفعتْ كفّها بيننا.

ـ أَنصت إليَّ، أرجوك. لن أطيل عليك. إذا كنتَ تحترم نفسك، وهذا مالا شكّ فيه، فلا تستمرّ في هذا الموقف؛ وإذا كنتَ متورطاً فاستعن بأحد آخر. بي أو بها. إنّها فتاة مثقّفة ومتزنة. اجتمع بها يا

أستاذ هاشم. لن يضيرك ذلك شيئاً. ستفهم هي منك بالتأكيد، وتفهم أنت منها أيضاً. لماذا تعاملها هكذا؟ سنة ونصف! يا لله! إنّه أمر ينافي كلّ الأعراف البشرية، وكلّ الأديان، وكلّ التقاليد. ألا ترى ذلك؟

كان ارتفاع صوتها وهي تتفوّه بالفقرات الأخيرة من كلامها، هو السّبب الّذي جعل البعض يتوقّف قربنا. وفي الأثناء، تعبتْ ساقي اليمنى من استنادي عليها طوال هذا الوقت، فنقلتُ ثقل جسمي إلى السّاق اليسرى. لابدّ لمن كان له جسم مثل جسمي أن ينتبه إلى عضلات ساقيه، وأن يوازن في الضغط عليهما. لعلّها انساقتْ في أقوالها دون أن تريد ذلك؛ إذ يحصل أحياناً أن تنعكس موسيقى الكلمات على النّفس وعلى الأعصاب، فتثيرها تلقائياً وتنتج الأمور المؤسفة بعدئذٍ. مسألة شبه رياضية لم تُدرس كما يجب.

ـ لِمَ لا تجيب؟ لِمَ لا تتكلّم؟

ها هي مثلاً تزداد توتّراً من أثر ردود فعل كلماتها على أعصابها. هذا هو مجمل الأمر؛ فلا أحد تصرّف ولا أحد تكلّم سواها. ولكننا حين نستمع إلى أصواتنا ترتجف، نظنّ أنّنا يجب أن نغضب، لأنّ ارتجافَ الصوت أحدُ علامات الغضب! ولقد توقعتُ، من ملاحظتي للاحمرار الواضح في بياض عينيها، أن تفقد الدّكتورة سلمى السيطرة على نفسها في الدّقائق القليلة القادمة؛ وهو ما كان يعني أنّ لديَّ وقتاً قصيراً جداً للنجاة. وفي الحقيقة، فإنّ المشاعر أو الانفعالات الآلية الّتي كانت تتوالد بكثافة في نفسي بسبب هذه المقابلة غير المنتظرة، جعلتني ـ هي قبل أي شيء آخر ـ أسعى للانفلات. ولم يخطر لي أن أحتال عليها للهروب، ولكنّي أردتُ ـ بصدق ـ أن ألقي نظرة متمعنة

أخيرة على لوحة معلّقة وراءها. ذلك هو الأمر الّذي كان؛ فتقدّمتُ نحوها وهي في ذروة التّبادل بين الصراخ والغضب الآلي، فإذا بها تظنّ أنّي أهاجمها.

يخلط الكثيرون في التمييز بين ما حدث وهل حدث وبين ما اعتقدنا أنّه حدث ولم يحدث وبين ما لم يحدث واعتقدنا أنّه حدث أو أردنا له أن يحدث؛ وأنا من بين هذه الكثرة من البشر. غير أن ما شدّني واستحوذ عليَّ وأنا أسوق سيّارتي عبر شارع أبي نؤاس؛ متأمّلاً الشّمس تغرب بحزن في زاويتها المظلمة، هناك على الجهة الأخرى من النهر؛ هو ذلك الاندفاع الثرّ من العواطف (أم هي انفعالات أم أمواج داخليّة أم إفرازات لا عقليّة أم. . .) الّذي انبثق بهدوء في مكان ما (إن كان هنالك مكان حقاً) من أعماقي الذّاتية، وأنا أستمع بموضوعية لتدخّل هذه الفتاة في تركيبة وجودي المؤقت داخل معرض الرّسوم. كنتُ، الآن، أرتجف وراء المقود؛ محموماً، أراقب الطّريق بغموض. لا اتجاه لي، هذه حقيقة غير مبتورة. لا اتجاه لي، سوى أنّي فريسة هذا الارتجاف المضبَّب والمغلّف بالغرائز.

ماذا كانت تلك الحمقاء لي؟ وعلى أيّ عصبٍ خفيّ منّي داست بصراخها وصورتها؟ ولماذا أنا هكذا؟ لماذا أنا هكذا؟ والينبوع البهيم يتدفّق. . يتدفّق بحنان، ويجول بلا غاية ولا نهاية في حنايا جسدي المتوتّر.

لم أرها من قبل؛ لا يجب أن أكون قد رأيتها من قبل. هي إنسانة فضولية لم أرتح لها ولن أرتاح لها. ولكني لم أرها من قبل؛ وأنا، في الحقيقة، لا أعرفها. لا أعرفها بالتأكيد؛ وهذا ما سأوضحه حالاً. ذلك أنّنا نتماهى أحياناً في حادث لم يحدث؛ ونتباعد، في أحيان

أخرى، عن حادث حدث. وكلّ ذلك مجرّد اختلاط في الرّؤيا. وبسبب أنّي لا أعرفها ولم أرها من قبل، فقد أصابتْ منّي نقطة حسّاسة؛ يضاف إلى ذلك، تلك القَصَّة اللّعينة لشعرها الطّويل. لكن تنقية الرّؤيا تجعل الأمور تستوي على قدميها؛ وسأقول له ذلك، ولعلّه يفهمني. سيفهمني، لاشكّ في ذلك؛ فالفهم ليس تبادلاً لغوياً حسب. الفهم بالمعنى الصحيح، الإنساني، هو الاتصال عبر وجودين. هو يراني أمامه كما أنا، الآن، فيلتقط منّى إشارات لا أراها أنا.. عين ترفّ وأصابع تتقبّض ونظرات زائغة؛ وهو إذ يراني، لحظةً، على حال معيّنة ملغزة، فإنّه يستعين برؤاه السّابقة عنّي ليجد الأجوبة ويفهم عندئذٍ ما لا يفهمه الآخرون. ثمّ يأتي الكلام بعد ذلك ليتمّ التّفاهم الكامل. سيفهمني.

كان الشّارع الّذي يقع فيه مستشفى النّعمان في الأعظميّة، مزدحماً يخنقه الغبار والظّلام الباهت. وصلته فجأة، وبدتْ لي المقبرة الملكية في نهايته يحيطها الغروب بألوان حمراء دكناء من كلّ جانب. ومع دخولي المعقّد في حنايا الأزقّة الملتوية المختفية على الجهة اليمنى من المقبرة، تغيَّر عندي ذلك الإحساس الغريب الّذي أيقظته زائرة المعرض. والآن إذ أقف، ملولاً ضجراً متعباً، أمام باب الدّار الّتي يسكنها خالي، أطرقه مرّات ومرّات دون جواب، فقد تملّكني القلق عليه وصرتُ أفكّر في المكان الّذي يمكن أن يذهب إليه في هذه السّاعة من نهاية النّهار، حينما سمعتُ صوته الخافت المتقطّع يرتفع ورائي:

ـ مرحباً هاشم، مرحباً. أية ريح طيّبة دفعت بك لزيارتي؟

كانت لحيته البيضاء تشعّ بشكل ما وسط ظلام الشّارع، وكان يبتسم بحبور:

ـ مساء الخير، خالي. أنا أطرق الباب منذ زمن دون جواب. لعلّك كنتَ تتمشّى على شاطئ النّهر.

ـ هذا صحيح. كنتُ أتمشّى هناك. أهلاً بك، أهلاً. افتح الباب بهذا المفتاح. أنا لا أستطيع رؤية ثقب القفل.

فتحتُ الباب ودخلنا غرفته الكبيرة الباردة، فأضاء مصباحها الكهربائي.

ـ خرج أبو علاء مع أهله منذ ساعات. اشترى سيّارة قديمة منذ أسابيع، فصارت عندهم عادة النّزهة يومياً. هي سيّارة مستعملة طبعاً.

ـ شيء جميل.

ـ نعم. يجولون كلّ يوم في شوارع بغداد على غير هدى. تفضّل. سأعمل شاي. هل تشرب الشّاي معي؟

ـ بسرور.

ـ خذ راحتك يا بنيّ. أنت متعب، ها؟

لم أجبه. سار ببطء إلى جهة من الغرفة فبدأ يهيّئ لنا الشّاي. كان أحد شبابيك غرفته يطلّ على زقاق يتصل بكورنيش الأعظمية وينفتح على سماء الغروب. لمحتُ، بين الغيوم والحيطان السّوداء، نقطة حمراء تشعّ وتتوهّج لغير سبب، كأنّها تشير إليَّ من بعيد، كأنّها تحيّيني بخجل. كأنّها.. يا لله! ولِمَ يجب أن يكون هذا؟

ـ سيحضر الشّاي بعد قليل. لِمَ لا تجلس؟

ثمّ تقدّم ووقف بجانبي يشاركني النّظر دون كلام. همس بعد لحظات:

ـ تعلم.. أنا.. جاوزتُ الثّمانين من عمري قبل فترة! الثّمانين!

استدرتُ إليه مندهشاً؛ كان يبتسم:

ـ لم أتصوّر أنّي سأبلغ هذا العمر. أبي، جدّك، توفّي رحمة الله عليه قبل أن يصل السّبعين. كان في صحّة جيّدة جداً، لكنه مات قبل أن يصل السّبعين.

ـ ثمانين! سبعين! هل لهذه الأرقام من معنى، يا خالي؟

ـ لا أعلم. لا أعلم. أنا لا أعلم.

ـ لقد بلغتُ أنا الحادية والثّلاثين؛ نفس عمر أمّي سناء حين توفيتْ.

بدا عليه الارتباك قليلاً وهو يصبّ الماء المغلي في إبريق الشّاي. التفت إليَّ.

ـ ماذا؟ المرحومة والدتك؟ نعم؛ سناء رحمة الله عليها.

ثمّ عاد ينشغل بتحضير شايه. كان منحني الظهر، قصيراً. كلّمني:

ـ هل.. كيف حال والدك؟

ـ لا أدري. لم نتبادل الكلام منذ ثلاثة أشهر. أو أربعة لا أتذكّر.

ـ أمر عجيب. وقادرية؟

ـ عمّة قادرية؟ كلاّ. إنّها إنسانة رقيقة وهي بخير.

ـ وأنت.. ماذا حدث لك؟ تبدو متعباً.. أم.. أم إنّك منزعج أيضاً؟

ـ لا أظنّ. لا شيء مهمّاً في الحقيقة. صادفتُ فتاة لا أعرفها طلبتْ منّي.. ولكن، قل لي الحق يا خالي، أصحيح أنّك كنتَ تكتب الشّعر وأنت ضابط في الجيش العثماني؟

رفع رأسه وانقطع هنيهات عن صبّ الشّاي. بانت عليه الدّهشة وهو يلتفتُ إليَّ ثانية ويبتسم كأنّه خجل.

ـ بالتركية.. بالتركية.

وعاد يكمل مهمّته بهدوء.

ـ أخبرتني بذلك أمّي سناء. كانت فخورة بك. يا لله.. كم حدّثتني عنك! أتذكّر كلّ أحاديثها تلك. لن أنساها أبداً. قالت بأنّ إحدى النّساء الشّابات آنذاك كانت تتطلّع إليك من وراء خشب الشّبابيك وأنت تروح وتجيء بملابسك العسكرية الجميلة في محلّة «باب الشّيخ». وصفتك بالهيبة والجمال.

ـ يا للنساء! يحكين أموراً غريبة!

ثمّ تقدّم حاملاً صينية صغيرة استقر عليها قدحان من الشّاي الأحمر الصّافي.

ـ نعم. نعم. أنا تخرّجتُ من الكلّية العسكرية ولم أبلغ العشرين من عمري، وكنتُ أتقن التركية وأتكلّم الفرنسيّة. يعلّموننا اللّغات مع دروس العسكرية. التركية أتقنها قراءة وكتابة وتكلّماً. أمّا الفرنسية.. فلا؛ ليس مثل التركية. بدأتُ أنساها منذ أن ذهبتُ إلى استامبول.

ـ لماذا ذهبتَ إلى استامبول؟

ـ لا أدري. كلّ النّاس كانوا يذهبون إلى هناك.. ولكن، أعتقد أنّهم استدعوني في وقته. الحكومة استدعتني.

ـ لماذا؟ لماذا طلبوا حضورك؟

ـ لا أعلم. لا أعلم.

ـ تقول أمّي سناء إنّك كنت تنظم أشعاراً حماسيّة ضد السّلطان وأنّك كنتَ عضواً في جمعية سرّيّة، فطلبوك للتحقيق معك ثمّ سجنوك وحاولوا قتلك بدسّ السمّ في طعامك، لكنك تنبّهتَ لهذه العملية و.. وأنقذت نفسك. ما صحّة هذه الحكايات يا خالي؟

كان ينظر إليَّ نظرة تساؤل وفضول وقد انعقد حاجباه الكثيفان. بدا عليه كأنّه يسمع حديثاً عجيباً عن شخص لا يعرفه بالضبط. رشف من قدحه رشفة أخرى. تطلّع إلى الشبّاك المطلّ على سماء الغروب، ثمّ قام سائراً نحوه ببطء. كان يرتدي معطفاً عسكرياً أدكن قذراً. وقف قبالة الشبّاك يشرب من القدح بصمت. تبدّى لي مظهره من الخلف مرتبطاً بالاختلاط الّذي أحسّه في داخلي. كان المعطف رثّاً، تلوّث الأتربة بعض جوانبه ويتكاثر الشّعر الأبيض المتساقط فوق كتفيه. كنتُ مثله رثّاً في أعماقي، مهتزاً، كارهاً لكلّ شيء؛ وكنتُ أريد أن أحدّثه عمّا صادفته في معرض الرّسوم، فقفزتْ إلى فمي، بدل ذلك، أحاديث أمّي سناء من وراء القبر. ظننته انزعج. بقي على وقفته، ساكناً، عدّة دقائق أنهى فيها قدح شايه ثمّ استدار ورجع إلى مكانه.

ـ ثلاثة شهور.. لا تكلّم والدك.. وأنت وحيده!

خلته لا يسألني فلزمت الصّمت. تكلّم:

ـ أنا.. كنتُ أزوركم عندما كان بيتكم هنا، أعني في كورنيش الأعظمية. أمّا الآن، فالمسافة طويلة وصعبة عليَّ. صرتُ أتعب من طول السّير على الأقدام.

ـ لو خابرتني لجئتُ إليك أنقلك بسيّارتي.

ـ صحيح. صحيح. بسيارتك طبعاً. أنت قلت.. ثلاثة شهور.. لا تكلّم والدك؟

ـ نعم. ربّما أربعة.

وضع قدح الشّاي مكانه ثمّ استرخى على الكرسي العريض وغطّى ساقيه بمعطفه. سألني:

ـ هل أصبّ لك قدحاً آخر من الشّاي؟

شكرتُ له عرضه وأعدتُ القدح الفارغ. كان منشغلاً برفع إبريق الشّاي والأقداح والملاعق؛ ولكن سؤالاً حائراً بقي يجول بيننا دون جواب.

ـ أنت تعلم يا خالي، تعلم جيداً بأنّه يكرهني مثلما كان..

رفع يده نحوي؛ كانت ترتجف بشكل ظاهر. أسكتتني إشارته تلك. همس:

ـ هو والدك. والدك.

وخيّل إليَّ، من ارتجافة في صوته لا يُؤبه لها، بأنّه أدرك ما أردتُ أن أقوله:

ـ إنّك.. أحسّ بك متعباً مثلي، وبحاجة لمن يكون معك.. بجانبك؛ وأنا تجاوزتُ الثمانين، وكنتُ أريد أن تساعدني في إيجاد عنوان دار العجزة لأذهب فأقيم فيها أيّامي الأخيرة، ولعلّ الله سبحانه وتعالى يرأف بي هناك فأرحل دون أن أزعج أحداً. ولكنك.. لا أدري.

وهزَّ رأسه، هزّ رأسه. أردتُ ألاَّ أحزن:

ـ لماذا تتكلّم هكذا، يا خالي؟

ـ لا يهمّ لماذا، ولكني، كلّ مرّة أراك فيها، أودّ أن أسالك.. تعرف، شرحاً أو ماذا يقولون.. تفسيراً لما تقوم به، لما قمتَ به، لما تفعله؛ ولكنّي أنسى؛ النّسيان آفة غريبة. هل حدث لك جديد اليوم؟

ـ أرسلوا لي واحدة تقول إنَّها ابنة عمّها.

ـ نعم.

ـ وأنا لا أعرفها.

ـ نعم.

ـ في الحقيقة، رأيتها مرّة أو مرّتين في دارهم. ثمّ ماذا؟
ولكنها..

تملّكني، آنذاك، غضب ملعون كأنّه نار تشتعل في الأحشاء. لبثتُ ساكتاً، غير مكترث لانتظاره الصامت. ثمّ قمتُ بحركة خرقاء وسرتُ لأقف مرّة أخرى قريباً من النّافذة. كلّ هذه الأمور مفهومة لديه، وهو لا يَزِنها إلاّ بميزان التوافه والترهات؛ وأنا لا أدري لِمَ لا أنصرف إلى شؤوني الذّاتية بعيداً عن هذا المكان وعن هذا الشيخ المسكين الّذي أفرض عليه أن يسير معي أواخر أيامه. وفي لحظة، قبالة الشبّاك الأسود، تغيّرتْ بي الصورة وتراجعتُ سنين طويلة. كنّا.. أمّي سناء وأنا جالسين مرّة نراقب الغروب في شرفة منزلنا البهيّ على شاطئ النّهر العريض الهامس، حين رأته هي يتمشّى بسكون، بعيداً كأنّه في نهاية الأفق، فعرفته. «.. ذلك خالك المسكين رؤوف، أعرفه من بين الآلاف؛ قيل.. إنّه كان شعلة من نار لا تنطفئ، فأخاف السّلطة والسّلطان بتحرّكاته في الجيش العثماني وبأشعاره وجرأته فنصبوا له فخّاً وأوقعوه ثمّ سجنوه وحاولوا اغتياله بالسمّ فشعر بذلك وتدارك نفسه فأخذ يصرخ ويستنجد ثمّ رمى بنفسه من نافذة عالية إلى البحر فنجا بحياته كما يقولون لكن روحه انطفأت وخمدت شعلته تلك، فعاد إلى بغداد بين العاقل والمخبول، بين الحيّ السّوي والميت الّذي لم يمت..» هكذا عاش بين أهله وهكذا رأيته وأنا طفل، وأحببتُ انكماشه وخجله وخوفه من الدّنيا وإشفاقه. كان، في جلسته منخفض الرّأس يعبث بأصابع يديه، يمنحني وقتاً لكي أسترجع هدوئي المفقود؛ وكنتُ مضعضع النّفس، أتطلّع إليه متأملاً ومتسائلاً عمّا فيه من ألغاز تعيد وشائج الصّلة بينه وبين أخته الصغرى.. أمّي سناء؟

ـ أنا آسف، بودّي أن أشرب قدحاً آخر من الشّاي. أيمكن؟

استدار نحو المائدة الصغيرة وأخذ يغسل الأقداح في صحن عميق:

ـ لِمَ لا؟ بالطبع. سأشرب معك أنا أيضاً.

ـ قل لي يا خالي، لماذا يشدّدون عليَّ الخناق؟ لقد أوشكتْ تلك الفتاة أن تثير فضيحة. أيجوز هذا؟

ـ أنت تعلم أحسن منّي. كلّ شيء يجوز. لماذا لا يجوز؟ أنت نفسك.. أمسك القدح جيداً.

كانت أمامي، قبل ساعات، في المعرض تضجّ بالألوان والموسيقى، وكانت تتكلم بين الخوف والجرأة والتوسّل؛ كأنّها كانت تريد أمراً خفياً آخر مني، هو الّذي أثارني وأفقدني التوازن.

ـ إذا أردتَ أن أعدَّ لك عشاء بعد هذا الشاي، فلا تتردّد في الطلب. يمكنني ذلك بسهولة، وستستحسن ما أطبخه لك..

ـ آه، كلاّ يا خالي العزيز. شكراً. يا إلهي.. كم أنا مرتاح لوجودي معك هنا! شكراً ألف شكر.

كان يبتسم ابتسامته تلك الّتي تمتزج فيها مظاهر الانخذال والخجل والمحبّة، والّتي يمكنها أن تتسع للعالم كلّه.

ـ اعذر لي يا هاشم إصراري على وجوب الاهتمام بوالدك. إنّ تكويني، منذ الأصل وطوال حياتي، يمنح الأب مقداراً كبيراً من الاحترام والهيبة و.. والسّطوة. نعم، أقولها لك.. السّطوة.

ـ هذه كلمة سنتناقش بشأنها فيما بعد.

ـ يمكن. يمكن. إنّما الأمر هو، لندع الوالد جانباً، هو.. سأسألك عنه بوضوح، أأنت قادر على.. على رؤية.. نعم.. رؤية نفسك بصورة جيّدة، رؤية نفسك من الدّاخل.. بصورة جيّدة تماماً؟

كان اللّيل على النّهر، مثلما ألفته في سنواتي الطفولية الماضية، كالحرير الأسود الدّبق المعطّر؛ وكنتُ أقف مستنداً على باب السّيارة، في لسانٍ أرضي يمتدّ في الماء، قريبٍ من بيتنا القديم، مواجهاً الرّيح الباردة الرّطبة، منصتاً إلى خرير المياه الأزليّ، خرير الطفولة.. تلك الّتي فقدتها على حين غرّة. كانت أيامنا معاً مهدّدةً منذ البداية؛ وكنا نحسّ، أنا وهي، بخطر يكمن في ركن مظلم من العالم، يتحفّز كالوحش لافتراس أوقاتنا الجميلة. تطلعتُ إلى الجهة الّتي أعرفها. لم أرَ شيئاً يذكّرني بأيّ شيء؛ وجلستنا ـ بُعيد الظهيرة وقبل عودته من المحكمة، نستمع بشغف وخوف إلى أغاني محمّد عبد الوهاب الشجيّة تأتينا من مكان مجهول.. مقهى أو محلّ تسجيل ـ كانت تنقطع كما كنا نتوقّع، بمجيئه غير المحمود.

والآن، ماذا كان يستقرّ في أعماق مخلوقة من نوع أمّي سناء، بالغة الرّقة واللّطف والضعف والاستكانة والتعاطف والانهيار، فيجعلها، على غير توقّع، تقف بمواجهته أربع مرّات أو أكثر في الشهر، تجيب على صراخه بصراخ أعلى وعلى غضبه بغضب أشدّ وأعتى وعلى كلماته النّابية بصمت مهين؟ إلاّ أنّها، بعد ذلك، إذ تبحث عنّي بخطواتها المضطربة فتلقاني ـ أو لا تلقاني ـ مختبئاً في زاوية من الدّار، فتمسك بي تحتضنني بشدّة إلى جسدها النّحيل، فينتقل إليَّ ارتجافها وذعرها المستور ونداوة عرقها المتسايل ويأسها.

شعرتُ بإرهاق يفاجئني فسعيتُ ببطء أجلس وراء المقود وأغلق باب السّيارة خلفي. كانت الأنوار قليلة على الجهة البعيدة الأخرى من النهر، وكتلة السّواد الثقيلة تجثم فوق المياه الجارية بتراخٍ.

خرجتُ مبكراً جداً هذا الصّباح من دارنا واشتغلتُ في المكتب الهندسي بحرقة، ولم يخطر لي أن ألتفت إلى هذا الجسم الضخم الّذي تحمله روحي معها أينما انتقلتْ.. غذاؤه؟ راحته؟ حاجاته؟ إنّها أمور تواجهنا باستمرار ونحن لا نسأل عن السّبب أو نتذمّر. نرتبط بجسدنا مرغمين. لا نريده أحياناً، لا نستطيع رؤيته، لا نطيق نزواته أو انفلاتاته، لا ندري ما نعمل بخيباته وانتكاساته وقذاراته الكثيرة؛ ولكننا نتواصل في التجاهل؛ وتبقى الرّوح (أو.. أو ما هي؟) تزهو بلحظات انتشائه النّادرة وتسعى بجنون لحمايته وتغذيته وتنظيفه، ناسية الآلام الّتي يسبّبها وما ينتظره من فناء مروّع.

تلك اللّيلة العسيرة.. يا لتلك اللّيلة!.. حين بدءا.. حين بدءا في الغرفة المجاورة تصارخهما الملعون. جمدتُ في ظلمتي تحت الغطاء، أخشى التنفّس. أردتُ أن أصلّي لأحد ما في هذا الكون. أردتُ، بورع، أن أصلّي؛ لأنّي كنتُ أعرف بأنّي طفل صغير بريء. كأنّ تلك الصفات كانت تمنحني امتيازاً بأن أكون مسموعاً مستجاب النّداء. فتحتُ زجاج السيّارة، فتسلّلتْ همسات النّهر إليَّ. استرحتُ لهذه الموسيقى اللّينة الصمّاء وطابت نفسي هدوءاً. التفتُ أتطلّع ثانية إلى ذلك الجانب الّذي أعرفه؛ ومرّة أخرى لم أرَ شيئاً من أيّ شيء. ولكن البيت هناك، مازال في مكانه وشرفته العريضة السّاحرة تطلّ دائماً على انفتاح الأفق عبر النّهر وعلى الموضع الّذي اتّخذته الشّمس مكاناً لمغيبها. نجلس بسكون ملتصقين أمام الزّجاج الرّائق، نتملّى من رؤية ملكة النّهار تمارس بجلال طقوس الاحتجاب اليومي. هي كلماتها، همستْ بها إحدى الأماسي وهي تضمّني برفق.. «لننظر.. لننظر إلى الملكة. تلك هي الملكة، تلك هي الملكة تتهيّأ للاختفاء» ولكم امتلأتُ غبطةً وفرحاً وأنا أسمع منها هذه الكلمات. ثمّ إنّي

استدرتُ إليها، أتمعن في وجهها الرّائع الصّفاء وأهتف كأنّي أنشد.. يا إلّهي.. كأنّني أنشد..

أدرتُ مفتاح المحرّك فانتفضتْ السيّارة واهتزّ كيانها. لبثتُ دون حراك، ممسكاً بالمقود، ضائع النّظر في الظّلمة أمامي. كنتُ مرهقاً، يزداد إرهاقي مع الوقت ومع افتقاد الجسد للغذاء. لويتُ المقود فاستجاب لذراعي وانطلقتُ بالسيّارة أشقّ الطرق والظّلام.

عبرتُ الجسر الحديديّ. تتناقص الأفكار أم لا تتناقص مع فراغ المعدة؟ ذلك ليس هو السّؤال؛ أو ربّما كان السّؤال بهذه الصيغة جواباً؛ جواباً لسؤال لم يُسأل. وهكذا نراوغ ونلتفّ مع التفاف الأسئلة والأجوبة لكي نصل إلى مطعم «فاروق» بأقصر وقت ممكن. أو هل بمقدورنا أن نجتهد ونقول إنّنا وصلنا المطعم بأقصر وقت غير ممكن؟

إنّ في الأمر جوازاً، سيقول المختصّون في القانون؛ وهو قول علينا احترامه رغم وضوح سخفه.

دخلتُ المطعم فغمرتني الرّائحة والضوء الخافت والابتسامات الغامضة؛ وأزعجني، وأنا أنتحي ركناً بعيداً، أن أشعر بالارتياح. ثمّ جاءني المدير، الّذي أعلم أنّ له علاقات خفية معهم ومع غيرهم، جاءني بنفسه يتلوّى في مشيته بانتظام ويستجيب لمطالبي ثمّ يقترح، برقّة مغشوشة، بعض الوجبات. ورغم قناعه المهني، لم يستطع أن يخفي أمارات ـ لعلّها ارتسمت على وجهه المقنّع دون وعي ـ بأنّه على علم أو بأنّه سمع بالتفاصيل اللّعينة؛ ولكنه، من جهة ثانية، لا يهتمّ كثيراً بذلك مادمتُ سأطلب وجبة كاملة أدفع ثمنها الباهظ مع بخشيش جيّد.

وانـزعجـتُ، إذن، لأنّـي ارتحـت، لأنّ الجسـد الضخـم المترهّـل وجد نفسه في المكان المطلوب حيث الشّراب والطعام اللّذيذ. وممّا زاد في انزعاجي أن أتبيّن أنّ ذلك الحديث الجدّيّ عن الرّوح وما يتداخل مع وجودها في الجسد الفاني من مشاكل باطنية مقلقة، لم يمنع انكبابي المؤسي حقاً على الصحون المليئة الّتي وُضعت بكلّ عناية أمامي على المائدة، بحيث أصابني غياب عن الوعي لمدّة نصف ساعة أو أكثر! كنتُ ألتهم أشياء لا أدري ما هي بالضبط. التهام! يا للتعبير الدّقيق عن تلك الممارسة الوحشيّة المعتادة!

ثمّ تراجعتُ بعد ذلك في كرسيّ إلى الوراء وأنا أكاد ألهث، شاعراً في موقع مبهم لا يمكن تحديده من نفسي، بأنّي منبسط وأوشك أن أقترب من حالة الارتياح الكامل.

كانت مصابيح المطعم، المعلقة في كلّ مكان، محاطةً بأوراق ملـوّنـة مـزركشـة تخفـي ولا تخفـي أغلـب الضـوء، وكـان الجلـوس يتهامسون بسرور فيما بينهم دون داعٍ ظاهر لهذا التهامس. خيّل إليّ أنّ أفراد جماعة يظلّلها المرح كما يبدو، كانوا يختلسون النّظرات نحوي بين آونة وأخرى. لم أتميّز ملامحهم، وشككت، بعد ذلك، في صدق ما تخيّلت.

جاءني المدير يعرض عليّ هذه المرّة توصياته بشأن الحلويات. راقبته يسير بين الموائد باتزان متراقص مبالغ فيه، وكان يبتسم. ظننته يتكلّف الابتسام؛ لكنه حين وصل ووقف أمامي، كانت الابتسامة تملأ فمه ووجهه وعينيه. لم يكن يتكلّف؛ ففي المطعم من الزّبائن ما يبعث ليس على الابتسام حسب بل على الضحك حتّى السّقوط على القفا! لا تكلّف إذن؛ وكلّ شيء على ما يرام، وليس في الأمر غشّ أو شوائب.

أوضحتُ له أنّ الحلويات لا تهمّني؛ وكنتُ أتظاهر بأنّي أعتقد أنّه كان جاداً في عرضها عليَّ وأنْ ليس في اقتراحه ناحية مستترة توجب الحذر، لأنّها قد تخفي سخرية غير معلنة بمظهري وبجسدي على الأخص. ولم يتراجع، بل ازداد سعادة لرفضي وأوصاني بألاَّ أفوّت القهوة التركية الفاخرة. قبلتُ ليس على غير مضض، وسألته مداعباً:

ـ أنت لا تريدني أن أدفع وأنصرف؟

ـ أبداً. نتشرّف بخدمتك دائماً أستاذ هاشم. نادراً ما نحظى بزبائن مثلك.

حسناً، ذلك ما لم يكن في الحسبان. أخذتني الحيرة لحظات. إنّه مديح من نوع خاصّ جداً، يُستحسن عدم التعمّق في محاولة فهمه. شكرته بهزّة رأس وبقيتُ ملتزماً الصّمت ومع القهوة التركية السيّئة الصنع، تذكّرت خالي رؤوف. ما كان ممكناً أن يكون عشاؤه أغنى وأكثر تنوعاً!

كنتُ أسخر؛ كنتُ أسخر بالطبع من بؤس خالي وفقر حاله. سخرية لئيمة وخبيثة ورديئة ولا تُطاق. لا تطاق أبداً، أبداً. كانت تعرض عليه نقوداً بالسرّ يرفضها على الدّوام. نقود جاءتها صدفة. كان يرفضها. تعلم هي جيّداً أنّه هو الّذي ربّاها واعتنى بها بعد وفاة أمّها وإهمال أبيهما. كان لها أماً وأباً وأخاً. خدمها بكلّ تواضع، قيل لي. كان يعلم أنّ الثّروة الضخمة الّتي أورثتها إيّاها أمّها لا تخصّه، وأنه سيعيش ويموت فقيراً مثل أمّه هو؛ وكان أبوه هو الآخر يعامله كخادم، ولقد رضي بكلّ ذلك. كان همّه الوحيد ألاَّ يفقدهما بعد أن فقد ذاته قبلئذٍ.

وأنا الآن، جالساً بين الصحون الفارغة، أتذوّق قهوة رديئة

سوداء، وأتلهّى بالسخرية من هذا الإنسان. من انكساره ومن تواضعه المستديم ومن إخلاصه وتفانيه؛ وأملك أن أهزأ بطعامه الّذي أراد أن يعده لي معجوناً بعرقه وبحبّه الفذّ!

ذلك ليس حدثاً بالتأكيد؛ إنّه صدى، يأتي متردّداً من بعيد، من بقعة غير مكشوفة في الذّات. يا لهذه الذّات! قمتُ خارجاً، متعكّر المزاج غير مكترث بتلك النّظرات الّتي أراها ولا أراها أحياناً. لم أكن مخطئاً بشأن تلك الجماعة المرحة. عرفتُ بعض الوجوه فيها حين تجاوزتهم مسرعاً. لو كنتُ هادئ النّفس لتوقّفت أمامهم ولأشرتُ بثقة إلى كلّ سحنة أعرفها، ولهتفتُ بالاسم جلياً. لن تضيرني، على كلّ حال، الأحاديث المبطّنة ولا النّظرات المختلسة، فأنا أفهم منهم ما لا يفهمون سوى الموقف، أو لنقل سلسلة المواقف الّتي تخلق وضعاً معقداً يحيطك ويحتمّ عليك أن تسير بمحاذاة أمور الحياة لا داخلها.

فوجئتُ بقطرات مطر غزير تبلّل وجهي وثيابي وأنا أندفع من باب المطعم غير منتبهٍ لشيء من حولي. ركضتُ فأنا لا أطيق المطر، ولكني أحبّ رائحة التّراب المبلّل وأوراق الشّجر. توقّفتُ تحت شجرة نبق هرمة؛ بدتْ لي كأنّها ترتجف لذّة من قبلات المطر العجيبة. عاودتُ تراكضي نحو السيّارة وأنا أملأ صدري بتلك الرّائحة المسكرة. دخلتها متعجلاً متأسفاً وأدرتُ المحرّك ناظراً إلى مؤشّر الوقود. إنّه الوقت الصعب حقاً لنفاده!

لم يكن مطعم «فاروق»، الّذي حشوتُ جوفي بفضل العاملين فيه بأطيب طعام، يبعد كثيراً عن دارنا في الحارثية، لذلك عندما صرتُ بعد دقائق أمام البوّابة الحديدية الضخمة كان المطر مايزال على زخمه. أوقفت السيّارة وتركتُ المحرّك يدور ونزلتُ راكضاً أحمي

رأسي بجريدة التقطتها من جانبي. لم أكن في وضع يسمح لي بأن ألاحظ أنّ مصابيح البوّابة الّتي تبقى مضاءة لحين عودتي، كانت مطفأة. هذه علامة لم يكن لها معنى من قبل ولا يمكنني أن أخترع لها أيّ معنى الآن. خاصّة الآن. لذلك اتجهتُ نحو البوّابة ودفعتها بيدي الطّليقة، وإذا بها تستعصي على الانفتاح. وبإصرار أيضاً. توقفتُ عند ذاك مندهشاً وتلمستُ بيدي عمّا يمنع انفتاحها، فوجدتُ سلسلة حديدية ضخمة تحيط بضلفتي البوّابة وتنتهي بقفل كبير. كانت مغلقة إذن عن تصميم. ملكني الارتباك لحظات ولم أجد تفسيراً منطقياً لهذا الوضع. ثمّ خطر لي أنّ كلّ شيء قد يكون خطأً في خطأ وصدفة في صدفة، وليس في الأمر تدبير مسبّق. أو تصميم. ضغطتُ على زرّ الجرس فسمعتُ رنينه المثير للأعصاب يصلني من داخل الدّار. ولم تمضِ غير ثوانٍ معدودة بين ضغطي على زرّ الجرس وارتفاع رنينه المثير للأعصاب وبين إضاءة مصابيح البوّابة الحديدية المقفلة في وجهي. ثوانٍ قليلة فقط، فهمتُ منها حالاً بأنّ للأمر علّة. وكنتُ على صواب؛ فقد ظهرتْ العلّة من الباب الدّاخلي تسير تحت الأضواء والمطر، مرفوعة الرّأس في دشداشة نوم بيضاء بدون ياقة، مشطبة بالأزرق شاقولياً. كان قصيراً أشيب الشّعر ذا هيبة (ولكن ليس تحت المطر) يضع نظّاراته ذات الأطر الذهبية ويتقدّم نحوي بتمهّل كأنّه يروم الاستشهاد. وقف وذراعاه خلف ظهره يتطلّع إليَّ رافعاً بصره. لم يكن، يوماً، معجباً بطول قامتي المفرط، ولم يقبله أبداً. كان بالنسبة له اعوجاجاً في الخلقة غير مفهوم.

ـ بودّي أن أعرف فقط إلى متى سيطول هذا الاستهتار منك بالتقاليد وبالناس والأخلاق؟ وهل تظنّ نفسك حرّاً، تفعل ما تشاء دون رقيب أو حسيب؟

كان المطر يفعل فعله في تساقط الشعيرات البيضاء على صدغ أبي نشّاحب وفي رشّ زجاج نظارتيه بقطرات صغيرة، بحيث بدأتُ أشكّ في أنّه يراني حقاً. صرخ:

ـ قل لي، من تتصوّر نفسك؟ قل لي. قل لي الآن. هل تظن أنّ كلّ شيء انتهى لأنّك تتخافى وتنهزم منهم؟ وأنا.. أنا أين أذهب بحالي وأنا في هذا العمر؟ لماذا يجب أن أدافع عنك وأستر عليك، وأنت، أنت المذنب بحقّهم لا هم؟

كان صوته...

... تلك اللّيلة العسيرة من حياتي أردتُ أن أصلّي فيها بخشوع مطلق حين تعالى تصارخهما في ساعة متأخرة من اللّيل؛ وظننتُ، مثل كلّ مرّة، بأنّي سأنجو حين تأتي إليَّ الملكة (قلتُ لها: أنتِ.. أنتِ الملكة يا أمّي سناء) لتضمّني إلى صدرها فنرتجف معاً ونبكي بدموع واحدة. لكنها، تلك اللّيلة العسيرة جداً، لم تأتِ إليَّ.. لم تأتِ الملكة وبقي صوته هذا يشقّ اللّيل فترة؛ ثمّ إذا به يصرخ صرخته الأخيرة مستنجداً مستغيثاً ملسوعاً بغضب عظيم، فقمتُ مرتعداً من سريري وهرعت إليهما فإذا بها ملقاة على الأرض مسدولة الشعر وإذا به يصرخ فوق رأسها ويضرب على صدره ويصرخ؛ وكانت ليلة عسيرة جداً، عندما لم تكلّمني الملكة بعد ذلك أبداً ولم أستطع حتّى أن ألمسها آنذاك...

ـ ... ذهبتَ. ثمّ اتصلتْ تلك الأخرى، لعنة الله عليها. إنّهم يحاكمونني أنا لا أنت. هل تفهم ما أعني؟

ـ افتح الباب يا أبي ودعنا ندخل قبل أن تمرض.

ـ تباً لك وتباً للمرض ألف مرة. يتكلّم كأنّه يخشى على حياتي وهو..

وكان يعبث بالقفل الكبير:

ـ . . يستعجل موتي. كراهية بأبيه، ليس غير. لا سبب آخر. نربّي ونشقى لنلاقي الذلّ بعد ذلك على يد هذه الذّرّية الدنسة. . الحقيرة. ثمّ سحب السّلسلة الحديدية من مكانها، فانداحت في الهواء وسقطتْ بضجّة خرساء تحت قدميه.

ـ أنا أحذّرك. لا أُريدك في بيتي إذا استمرّتْ الحال على ما هي عليه. جدْ لك مكاناً آخر تعيش فيه. هذا آخر كلام لي معك. تذكّره الآن. تذكّره جيّداً.

كنتُ أقصد السيّارة لأدخلها بعد أن فتحتُ البوّابة وأنا أراقبه يعود مسرعاً وعظام كتفيه تبين من تحت الدّشداشة المبلّلة. لم تأخذني الشّفقة عليه؛ ولا الغضب أو الاشمئزاز. إنّه على حقّ في بعض ما قاله، وأنا، خلال سريان تلك الحوادث، لا يبدو بأنّي كنتُ أنظر إلى العالم بمنظار مستقيم، بل يبدو أنّي كمن زلّتْ به قدمه وهو في طريقه إلى هذه الدّنيا فانقلب عاليه سافله واستقرّ على هذه الحال؛ يرى إلى الكون بمنظار مقلوب يظنّه أصيلاً لأنّه يكشف ـ بحكم وضعه الشاذّ ـ بعض العورات. إلاّ أنّ الأمر ـ أولاً وأخيراً ـ مشكوك فيه؛ ولعلّ العورات في ذاتها، ميزات معقدة يحتاج تقويمها الصحيح إلى موهبة عميقة قد لا أملكها.

كنتُ أرتجف وأنا أغيّر ثيابي في غرفة النّوم المترفة الباردة. لم أهتمّ بإشعال المدفأة، وأسرعتُ بالخروج إلى الصالة ثمّ نزلتُ إلى المطبخ. كانت عمّة قادرية هناك ترتجف هي الأخرى انفعالاً. لم يرض أن يبدّل ثيابه المبلّلة، ورمى كل شيء على الأرض صارخاً لاعناً. طمأنتها بأنه سيهتمّ بعد ذلك بالمحافظة على صحّته. كانت صفراء، ممصوصة الوجه. تناولتُ يديها الباردتين وقبلتها في جبينها

ويديها. سحبتهما بسرعة ثم احتضنتني تنشج مضطربة. كانت على الدّوام موزّعة العواطف بين أخيها وبيني.. أنا الّذي صرت بمثابة ابنها بعد غياب أمّي سناء؛ وكانت تريد أن تربط السّالب والموجب دون أن تشتعل نار أو يحتدم صراع.

أمسكتني بقوّة من ذراعي وأجلستني على كرسيّ أمامها، فعرفتُ بأنّ لديها الكثير الّذي تريد أن أعلمه. أبي متوفّز الأعصاب منذ ليلة أول أمس حين وصله خبر بأن اسمه قد رُفع من قائمة القضاة المرشحين للترفيع إلى عضوية محكمة التمييز. اختلّ توازنه إذ سمع النّبأ وارجع السبب إلى الفضيحة الّتي حدثتْ ولايزال صداها يرنّ في مجتمع بغداد اللّعين؛ ولا فائدة مطلقاً من أيّة محاولة لإقناعه بعكس ذلك؛ وهو منذ ليلة أمس يحوم في البيت ويريد رؤيتي ويدخّن باستمرار. النداءات التلفونية لم تنقطع. كلّها تسأل عني. رجالاً ونساء؛ وكلّها أجاب هو عليها حتّى كاد رأسه ينفطر.

ـ وأنتِ، كيف حالك يا عمّتي وأمّي العزيزة قادرية؟

ـ لا تكلّمني هكذا يا ابني. أنا أتعذب مثل عذاب أبيك.

ـ ولكنه سيترشّح في القائمة القادمة. تأكّدي. لِمَ هذا القلق؟

ـ أنت تسخر منا يا هاشم، يا حبيبي؟ نحن لا نستحقّ هذا منك. أنت كلّ ما نملك في الحياة. من لدينا غيرك، أنا وأبوك؟

ـ نعم. نعم؛ ولكني لا أسخر منكما، عمّة قادرية. أبداً. أنا متأسّف فقط لأنّي أزعجكما. أنتِ بالذات.

ـ أنا لا شيء يا ابني، أنا لا شيء. أنت هو المهم. أنت موضوع العائلة كلّها.

كانت إحدى ضفائرها الطويلة البيضاء أمامها، فتناولتها وأعادتها خلف ظهرها.

ـ أنت يا هاشم أمل العائلة، وقد وهبك الله كلّ شيء.. المال والخلقة الحسنة والمهنة المربحة؛ ماذا تريد أكثر من هذا؟

استغربتُ كلماتها:

ـ أوتظنينني محظوظاً.. أنا الّذي فَقَدَ أمّه وهو في التّاسعة من عمره؟ رأيتها ميتة أمامي! بسببه هو.

بان عليها الفزع وازداد وجهها اصفراراً؛ أشارت إليَّ بالسكوت:

ـ لا. لا يا ابني، لا تتكلّم هكذا يحفظك الله. لا تتكلّم هكذا. الموت بيد الله، وقد كانت قسمتها أن تموت ذلك اليوم.

ـ كان عمرها واحداً وثلاثين عاماً، وقد ماتت بانفجار في الدّماغ. لماذا حصل لها ذلك؟ قولي لماذا؟ أنتِ تعرفين كلنا نعرف.

ـ كان حظّها أن تموت شابّةً، كان حظها. لكنها ماتت وهي سعيدة ومطمئنّة، لأنّها خلّفت لك ثروة ضخمة. كانت تقول لا أريده أن يعيش كأخي رؤوف. رحمها الله ألف رحمة. وها أنت ترى نفسك غير محتاج لأحد، وأنت مستقل عن أبيك، بل أنت تساعده أحياناً، أليس كذلك؟ إنّ هذا من رحمة الله بك.

ـ نعم. نعم.

أحسستُ، دون سبب واضح، بغرابة، ما تقول. إنّها لم تكلّمني من قبل هكذا. مطلقاً. ولكن الشيء الأساسي لايزال يختفي في الأقوال الّتي لم تقلها بعد. ها أنذا الآن إذن، أمام كلمات لم تلفظ، تبعث في نفسي الاضطراب والإحساس بالغرابة.

كانت تحدّق في وجهي، ليس بغير جرأة لم أعهدها منها:

ـ أنت يا ابني العزيز، لا تقدّر كلّ هذا، رغم أنّك طوال حياتك لم تكن إلاّ إنساناً رزيناً متحسّباً. هذا المال الّذي صرفته، أنا لا أسألك عنه؛ إنّه مالك، تعمل ما تشاء به؛ ولكن.. حرام يا هاشم، هذا

حرام. أتتذكّر يوم ذهبنا نستلم حقوقك من ميراثها؟ كم بكينا ذلك اليوم يا ربّي، كم بكينا!.

ظننتُ، عند ذاك، إنّي سأقوم وأتركها بعد أن سمعتُ منها ما يكفي. كانتْ، ببراعة غير متوقّعة، تخمش أكثر عواطفي حساسيّة؛ وكنتُ متسمّراً في مكاني كأنّي أروم منها أن تزيد في الطعن والإيلام.

ـ ووالدك هذا لا يقصد سوءاً إذ يهدّدك بالطرد من بيته؛ فهو يعلم قبل غيره أنك اشتركتَ أنت أيضاً في بنائه.. من ميراثك منها رحمة الله عليها. وكنتَ فعلتَ حسناً حين واقفتَ على بيع بيتكم العتيق ذاك في الأعظميّة. كاد يسقط على رؤوسنا يا أُمّة محمّد. ولكن، انظر هنا يا هاشم؛ كلّ شيء يتمّ بالعقل والتدبير والمراضاة. ماذا تريد من دنياك يا بني؟ أحببتَ أن تتزوّج وتتأهّل مثل كلّ النّاس. ليس في هذا أي عيب، وكانتْ، يحفظها الله، فتاة مستورة مناسبة؛ إنّما هذا البذخ.. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

سألتها بهدوء تام:

ـ ماذا كانوا يريدون من نداءاتهم التلفونية؟ هل أعطوك اسماً أو.. أو أرادوا شيئاً؟

تراجعتْ قليلاً ثمّ مكثتْ لحظات جامدة الملامح. أمسكتْ بيديَّ ومسّدتْ عليهما برقّة ونعومة:

ـ كلاّ. كلاّ. لا يضيرك ذلك. لا تدعه يزعجك. لقد فهمتُ من.. من ضجّتهم هذه أنّ هنالك طبخة للفتاة يريدون إتمامها.

ـ طبخة للفتاة؟ أية فتاة؟

ـ آمال يا ابني، آمال. لا يمكن أن تبقى هكذا. تريد أن تتزوّج؛ ولعلّ عريساً.. أو لا أدري.. تقدّم لخطبتها أو.. أو أيّ شيء آخر. من يدري؟ أنا أخمّن فقط، فكلّ شيء جائز هذه الأيام. وماذا يريدون

منك؟ لقد عملتَ الواجب، وأكثر منه، جهّزتَ وبنيتَ ورميتَ بنقودك ذات اليمين وذات اليسار، فليصبروا عليك إذن. ليصبروا.

كنتُ حانقاً، أُسائل نفسي عمّا إذا لم أخطئ في نزولي إلى المطبخ لملاقاتها وسماع أحاديثها هذه؛ وكنتُ حانقاً لأنّي كنتُ أتساءل؛ وهكذا اهتديتُ إلى رؤية الدّائرة المفرغة الّتي أدور فيها. قمتُ فبدا القلق بيّناً على وجهها. سألتها:

ـ ألديك أيضاً ما تقولينه؟

فعادتْ تمسك بيديَّ وتشدهما إليها:

ـ اسمع منّي كلمة أخيراً يا بني. إذا كنتُ أزعجتك بكلامي فاعلم بأنّك محتاج إلى هذا الانزعاج. أنا، أنت تعلم والله شاهد، أنا لا غرض عندي، ولستُ ضدّك مهما تعمل، وليحفظك الله.

اعتقدتُ، عائداً إلى غرفتي، أنّ ثرثرتها لم تزد أو تنقص في ترتيب أموري النفسية؛ لكنّي غيَّرتُ رأيي بعد أن سرتُ خطوات فقط مبتعداً عنها. دخلتُ الصالة في الطّابق الأوّل.. طابقي. وقفتُ في العتبة أتطلّع إلى الأثاث. إنّها غرفة الاستقبال. الآن، ووراثي زمنياً حكايات عمّة قادرية، أراها بعين أخرى. كانت من الأثاث المنقوش الثّقيل القاتم اللّون بقماش أبيض؛ تكلّفت عدّة آلاف؛ والسّتائر تخنق الأفق.

شعرتُ بتعب في قمّة رأسي، يهبط زاحفاً نحو الكتفين والصدر والأطراف ثمّ السّاقين. أما مُتعب منذ الأزل ولكن هذا التعب جديد عليَّ ومن نوع خاصّ. ماذا أرادتْ أن تحمّلني هذه العمّة العزيزة، فوق الأحمال الّتي يكوّمونها فوق ظهري؟ لم أجب نفسي.

أردتُ أن أستحمّ لعلّي أرتاح. رميتُ بجسدي على السّرير الواسع

الوثير. هذا أيضاً، يجب أن ندخله في حساب التبذير. أنت تملك نقوداً كثيرة، فأنت إذن تملك أن تمارس التبذير. ترمي نقودك يميناً ويساراً بلا رقيب أو حسيب؛ وبشكل خاصّ جداً إذا لم تكن تعلم من أين جاءت هذه النّقود ومَنْ كدَّ وعرق لتجميعها. يكون الأمر سهلاً آنذاك؛ ويكون، في الحقيقة، سفاهة صرفة. وهنالك طبخة أيضاً، كما تخمّن. طبخة زواج جديد. من يدري. كلّ شيء جائز هذه الأيّام؛ وإلاَّ.. لِمَ هذا الاهتمام الفجائي الزّائد؟ كنتُ مأخوذاً مستَمَلكاً مشلولاً. هنالك تراكم من أعمال ناقصة وأفكار مكسورة ومشاريع مجهضة، تسدّ عليَّ منافذ الحياة. إنّ تفسيراً وحيداً لكلّ ما جرى، لا يمكنه أن يمنحني الأمان؛ وكل خديعة قد تجوز إلاَّ تلك الّتي تخصّ الذّات. نهضتُ أنزع ثيابي وأرتدي البيجاما، ثمّ قصدتُ الحمّام فاغتسلتُ بسرعة. كان الضوء أبيض قوياً، ينعكس على موجودات الحمّام الزجاجية الزّرقاء فيرسل توهّجات تتعب النّظر دون جدوى. بمن يستغيث الإنسان المنفرد؟ كانت الغرفة باردة فارتديتُ معطفي البيتي، ثم اخترتُ مقعداً وثيراً فجلستُ عليه. لم أشأ النّوم. من يمكن أن يعين الإنسان الوحيد، يمنحه النجدة بكلّ طيبة قلب ومحبّة؟

لا أريد اللّيلة أن أنام. هنالك أمر جلل أجهله، أضاع عليَّ مشروع النّوم. أمر جلل، لاشكّ. قمتُ، إذ تذكّرت. كانت أسطوانة شوبان «لَيْلِيّات» لاتزال في مكانها منذ ليلة أمس. حرّكتُ يد الحاكي وعدتُ أحاول الاسترخاء. انتشرتْ الألحان في الفضاء وأحاطتْ بي في دوائر رقيقة أنيسة ودودة. أمس لم أكن مرتاحاً أيضاً، لكني لم أكن منزعجاً.

أحسستُ كأنّ هنالك من يخاطبني ومن وراء النغمات، وكأنّي

لستُ وحيداً أو متفرّداً في هذا الكون الأخرس. ثمّ أحسستُ كأنّ أمراً ما في داخلي انقلب على جهته المشرقة وفتح الكوى على التّسامي والفهم. أنا.. أنا لستُ عاجزاً عن التّسامي، لا ولا عن الفهم؛ ولقد تلقّيتُ، اليوم، كلّ شيء وبصبر وإدراك. سوى أنّي لا أريد التّواصل المطلق مع البشر. إنّ نفسي بطبيعتها موزّعة، متنافرة الأجزاء؛ ولقد صعب عليَّ، ولايزال كما يبدو، أن ألمَّ بكلّ الأفكار وأن استوعب كلّ شيء. إنّ طبيعة الأمور في هذا العالم لا تلائمني، وحقيقة ذاتي لا تمتزج تماماً بما هو حولي.

لم ينطق أبي بأقوال ذات أهمّية ما؛ وها هو مرّة أخرى أمامي، يتضارب مع الريح والمطر وينفث كلماته الهوجاء الّتي أجد الآن أنّي أكرهها مثلما أكرهه. ألم يكن هو السّبب؟ ألم يكن هو السّبب؟

ويقولون بعد ذلك.. القسمة والنّصيب. ما هي القسمة وما هو النصيب؟ أيّة كلمات خرقاء بليدة هذه! قسمتها أن تموتَ شابّة في الحادية والثّلاثين! لماذا؟ وعلاقته الوحشيّة بها إذن؟ ألم تعمل عملها وتفتك بتلك المخلوقة السماوية البريئة؟

من يدري.. آه.. من يدري! لعلّه هو وأفعاله، أو لعلّه نسيج شراينها التالف! الشكّ أيضاً؛ مرّة أخرى وليست الأخيرة. ومن يمكنه البتّ في أمور خفية كهذه؟ والمعارك والتصارخ في اللّيل والنّهار، والمماحكات والتكاره والإصرار على التوحّد والعزلة، وكلّ تلك الصغائر والسفالات البشريّة.. أيمكن أن تكون في شخص واحد.. إنسان مفرد؟ أم.. أم يحتاج الأمر إلى اثنين لتتم الصفقة المريبة؟

هاك نموذجاً آخر لا يمكن البتّ في صدقه أو كذبه. قمتُ أقلّب

«لَيْلِيّات» شوبان وأزيد في صوت الحاكي. أحبّ أن أغرق في هذه الألحان، أن أحسّ بها تغمرني بقوّة رغم شفافيتها الخارقة وأنوثتها أحياناً. ولِمَ لا؟ ليست الأنوثة لدى النّساء فقط. إنّها اجتماع صفات؛ الرقّة واللّطف البالغين والانعطاف والدّلال المتوازن والاستضعاف والعطاء والجمال المهيمن والانسجام في التواجد، وكلّ ما يجعلك.. ما يمنحك الشعور بالرضا اللاّمحدود. حين قمتُ، تلك اللّيلة الصيفيّة الباهرة في حديقة نادي العلوية، لأستلم جائزتي بعد أن أكملت، في لوحتي، خطّاً مستقيماً كما كان يتوجّب في لعبة «البنكو» رأيتها تسير هي الأخرى من الجهة المقابلة وفستانها الأبيض المترف يتلاعب به نسيم معابث فيلصقه على جسدها الفتيّ. ولم يخب أملي في أن تشاركني جائزتي الماليّة، فقد كانت رؤيتها بجنبي، تبادلني النّظر المتفحّص والابتسام، هي بحدّ ذاتها جائزة من نوع خاص. كانت، بمجملها، تلك اللّيلة تمثّل الأنوثة أجلى تمثيل. أردتُ أن أتنازل لها عن نصيبي من الجائزة فهزّتْ رأسها بالرفض وابتسمتْ شاكرة. ثمّ لمّا أصررتُ أن أقدّم لها الهدية العينية دون حاجة للعبة الورق قائلاً بأنّها عربون الإعجاب، هزّت رأسها مرّة أخرى وقبلتْ الهديّة شاكرة بلطف مع نظرة تخفي ابتساماً ذا معنى.

هكذا نرى الأنوثة تنبثق أمامنا أحياناً، ونسمعها في أحيان أخرى. لا فرق كبيراً، إلاّ في النّفس الّتي تتقبّل هذه التأثيرات أو لا تتقبّلها. إذ يبدو، أغلب الأوقات، أنّ المسألة مسألة معادلة ذات طرفين؛ فليس هنالك أنوثة مطلقة قائمة بذاتها، لا تحتاج لمن يتقبّلها أو يكون طرفاً ثانياً مكملاً. بدوني، مثلاً، ماذا كان يعني هذا التكوين الجسديّ المغطّى بقطعة قماش بيضاء، والّذي يتحرّك بانسجام مرّة

وباضطراب مرّات أخرى؟ لا شيء بالضبط. والعينان ترفّان دون سبب وشقّ الفمّ ينفتح فيما يُسمّى بسمة ذات معنى!

كلّ هذه المبالغات، يظهر سخفها للعيان حين نريد أن نقحم تنظيرات جماليّة عليها؛ فلولا وجوب أن يكون للمعادلة طرفان، لما بدأ التهامس والتساؤلات عمّن يكون وما عمله ومن أيّ عائلة هو وكم يملك! ولما حصل، أصلاً، لقاء ثانٍ شبه متعمّد وغير مفتعل، ولما ازدادتْ النّظرات عمقاً وامتلأت بكلّ المعاني الخفيّة الّتي في الجعبة. وتلك كانت معهم في اللّقاء الثّاني، بعد أسبوع بالتمام.. سبعة أيام. كانت تجلس إلى مائدتهم، الطّبيبة ذات القَصَّة غير الملائمة. كانت آنذاك ذات جدائل من الشّعر الأسود الجزل وكانت تتبارى معها في الالتفاف وفي تحميل النّظرات ما لا تتحمّل. وها هي الآن تعترض النّاس في المحلاّت العامّة وتسائلهم وتماحكهم ولا أدري ماذا تعمل من أجل عيون ابنة عمّها! أليس هذا غريباً، حتّى في أيامنا هذه المظلمة؟

وقفتُ متوفّزاً أمام الشبّاك المغلق المطلّ على الحديقة الخلفية. سكتت «اللّيْلِيّات» وماج قلبي. كان خالي رؤوف على حقّ حين صار يجادلني. لم تعد هنالك جدوى من التعاطف الأبدي والبكاء على الأكتاف. ولكن، أبمقدوره أن يفهم بأنّي آخر من يمكنه أن يفهم، آخر من يمكنه أن يجيب؟

كان معهم إذن في اللّقاء الثّاني الّذي لم يكن لقاءً بل مناوشات بصريّة وتفحصاً ليس عن كثب؛ وقامتْ هي لسبب أو لآخر وتركتْ لي أن أتملّى من رؤيتها تتغنّج سائرة برفق على بيض غير منظور. أتذكّر ذلك. هذه تسير على بيض غير منظور والأخرى، الطّبيبة،

جالسة تترصّدني بنظرات نفاذة مزعجة. وكان الأمر صبيانيّاً بشكل غير معقول. وأبواها معها أيضاً وزوج هذه اللّعينة المترصّدة. اجتماع تآمري من الدرجة الأولى كما يقولون.

وكنتُ أمام هذه الرزمة البشرية بمفردي؛ أكاد، كلّ لحظة، أهمّ بالاختفاء تحت الطاولة. حزرتُ الوضع مقدّماً فسعيتُ لدعوة قريبات مسنّات لأبي من «آل سليم» لحفلة «البنكو» هذه، عسى أن يكنَّ لي غطاءً، فاعتذرن لسوء الحظّ. كنتُ أريد أن أتستّر ولو بورقة تين مستعملة، فلم أفلح. وانقضتْ تلك اللّيلة الصيفيّة، في حديقة نادي «العلوية»، بين أشجار الكالبتوس العالية والنسمات المعطّرة ورائحة الشّواء، كأنّها تمهيد لمسيرة مجهولة لم يخطر لي، لحظة، إنّي أريدها. كذلك لم أكن أفهم شيئاً؛ ولعلّي ماأزال.

أرجعتُ «لَيْلِيَّات» شوبان إلى الحاكي وشغّلته. هكذا أفهم الموسيقى روحياً؛ أجعلها تستقرّ بهدوء في دمي بتكرارها وبالانغماس الطويل المستمرّ فيها.

هذا المساء، تَواجَهْنا بغتةً بعد ذلك التّاريخ المتعرج المديد. لعلّها ظنّتْ، حقيقة، بأنّي لم أعرفها، تلك اللّعينة. كأنّ قَصَّة الشّعر يمكن أن تغير أي شيء! وكانت تتكلّم بحميّة واندفاع، وصوتها الصّافي جداً كالموسيقى، تشوبه أحياناً ارتجافة تشي بانفعالها؛ وكم بدا عليها اهتمام غريب لأنّها تصوّرتْ إنّي لم أعرفها!

ابنة عمي.. أستاذ هاشم.. لا تقبله الأديان.. كلاّ، ينافي الأعراف البشرية، أيّة كلمات منتفخة! وكانت في فستانها الأسود وسترتها الأرجوانيّة تفسح مجالاً واسعاً لصدرها الممتلئ كي لا يختفي. وحينما تقدّمتُ نحوها.. أكنت أقصد إخافتها؟ أم كنتُ

خالي الغرض تماماً؟ أم لعلّي كنتُ أجمع الاثنين.. خالي الغرض بقصد الإخافة؟

ولبثتْ، خلال لحظة، واقفةً بثبات أمامي، تحدّق في عينيَّ بعمقٍ وتحدٍ. ثمّ وأنا أمرُّ جنبها، في اللّحظة الثّانية، فضحتْ غمازة صغيرة في طرف فمها المزوّق بإتقان، سراً غريباً. ولأن الأسرار، بطبيعتها، غير ذات حدود، تملكني ذلك الانبثاق العاطفيّ الحادّ الّذي أضاع عليَّ جمال ساعة الغروب.

عدتُ ألتمُّ على الكرسي البارد وأجمع أعضاء جسدي كالأفعى؛ وضعت رأسي بين ذراعيَّ المستندتين إلى ركبتيَّ. كرة لحمية عصبية دمويّة ضخمة: وكنتُ أتنفّس وأنصتُ إلى أنفاسي تختلط بالموسيقى. خيّل إليَّ برهة أنّ نبضات قلبي اضطربتْ قليلاً. هذه هي أعمال المعدة الممتلئة؛ تضغط بغير رأفة على أركان القلب السّفلى.

هذا هو التّفسير الأسلم على كلّ حال، فالقلب لا يضطرب دون سبب. أوّل مرّة عملتها تلك الفتاة الّتي وصفوها بالخجل، كانت بعد عشرة أيام أو أكثر من لعبة «البنكو» الثانية الّتي مشت فيها أمامي على بيض غير منظور، وحين كانت معها صاحبة قَصَّة الشّعر. كان صباح جمعة حاراً من أيام آب الملتهبة، وكنتُ داخلاً النّادي.. أم كنتُ خارجاً منه؟.. عندما تقابلنا في ساحة المدخل. تبادلنا النّظر. كانت بمفردها. أنا.. أنا لم أبتسم ولم أبعث إليها بأيّة تحية من أيّ نوع كان. لم أكن مختصّاً في مثل هذه الشؤون. أمّا هي، فبهزّة ناعمة لا تكاد تُرى من رأسها، حرّكتْ خصلات شعرها المتناثر حول الوجه الفتيّ؛ وببسمة مثل شبح ملوّن.. حيّتني. اضطرب آنذاك قلبي وهززتُ لها رأسي أنا الآخر.

كان ذلك هجوماً مباغتاً، أُخذتُ فيه على حين غفلة. لم يكن واضحاً لي ما كانت تريد؛ وكان يجب أن أمضي في جهلي هذا إلى نهاية المطاف، وألاّ أحاول تمثيل دور الذكيّ اللّبق الفعّال؛ فمجتمع السّبعينات هذا، الدّاخل في خضمّ عملية إجهاض كبرى، لم يكن مستعدّاً لمهادنة إنسان مستوحش معزول مثلي.

وفي تكوّمي فوق الكرسي الوثير، تلك اللّيلة الباردة، والسّاعة قد جاوزتْ الواحدة صباحاً، تساءلتُ عمّا أروم من ترسيم حدود الحوادث المختلطة وتشكيلها نبرات الماضي، كمن يغرز دبابيس مسمومة في جروحه التي كادت تلتئم؟ لم أجب نفسي لأنّ الوقت لم يسمح لي. كنتُ بين المستبرد والمتضايق من جلسة غير اعتيادية وبين المتمتّع بالموسيقى والمتهجّس منها لأنّها عالية أكثر مما تحتمله أجواؤنا، حين طُرق باب الصالة طرقاً ملحّاً. قفزتُ بالطبع من مكاني فكدتُ أسقط لولا تمسّكي بحافة الكرسيّ؛ فجسدي المسترخي لم يسعه الاستجابة بانضباط لأوامر العقل. مشيتُ ببطء إلى الباب. ظننته أبي وتعوذّت من الشيطان عدّة مرّات. كانت عمّتي قادرية، ترفّ عيناها بسرعة وتخنق نفسها ببطانية ثقيلة لفّتها حول جسمها:

ـ هاشم، ابني.

ـ نعم. ماذا هناك؟ ما الخبر؟

ـ التلفون، أما تسمعه؟

ـ كلاّ، خير إن شاء الله، أهناك من يطلبني؟

ـ إنّها هي. تلك الطّبيبة. سلمى، تقول اسمها.

لم تبعث فيَّ نسمات الصّباح البليلة الانتعاشَ الّذي كنتُ بأشدّ الحاجة إليه. وحين طلبني مدير الشركة لأمر عاجل، ظننته سيسألني عن سبب تأخّري في الحضور. كان في غاية البشاشة، يتطلّع من

وراء نظّارته السّميكة باستحسان إلى كومة الخرائط والملفّات الموضوعة على مكتبه الكبير. لم أُحبّه رغم محاولاته غير المفهومة لتجميل صورته عندي. كان يسقط، أغلب الأحيان، في اللّحظة الأخيرة لاختباري الإنسانيّ له.

عرض عليَّ بكل افتخار مشروعاً لإقامة مدينة نموذجيّة في جهة من بغداد، يتكلّف عدّة ملايين حصلتْ عليه إحدى الشركات الأجنبية الّتي تربطه بممثّلها صداقة متينة. قال إنّهم يجهلون كلّ شيء عن العراق وبيئته وهندسة بيوته القديمة والحديثة، وإنّهم سيختارون شركتنا بالتأكيد لتكون مقاولاً ثانوياً تعمل، في الواقع، كلّ شيء. ثمّ طلب مني أن أرسم له عدّة خرائط تجريبية لبيوت تصلح لموظّفين صغار، هم بين العمال وبين رؤساء الشُّعَب، وأن أكون مقتصداً قدر الإمكان بالمساحات البنائيّة وبالتكاليف بصورة عامّة. ثم صمت لحظات:

ـ اسمع أستاذ هاشم. لاحظتُ، إذا سمحت، على بعض خرائطك أنّك.. أنّك أحياناً.. كيف أقولها.. أنّك شاعريّ.. نعم، هذه هي الكلمة.. شاعريّ أكثر ممّا يجب. أعني أنّك تضيِّع بعض المساحات المهمّة من أجل إضفاء مسحة أو رونق.. أو لا أدري ما أُسمّيه، على الدّار. أأنا على حقّ؟

ـ أنت يا سيدي، بعلمك وتجاربك، أستاذ لي. وما لاحظته، لاشكّ، له أساس وسبب أيضاً، فلقد أردتُ، في الحقيقة، دراسة الأدب لا الهندسة وذلك لشدّة شغفي بالشعر والفلسفة، إلاّ أنّ والدتي اعتادتْ أن تقول لي إنّها تجب أن أكون مثل جدّي.. والدها.. مهندساً معمارياً؛ وهكذا كان.

ـ الأدب؟! تدرس الأدب؟ أعوذ بالله. وكيف تدبّر أمور معيشتك؟

ـ هذه محنة أخرى لم أفكّر بها في حينه. المهم أنّ لديّ هذه النزعة لإعطاء الشّعر.. أو الجمال إذا أمكن القول.. مكانه في الخريطة.

ـ لا اعتراض لي كمهندس على ذلك؛ إنّما الأمر مع هذا المشروع يختلف بعض الشيء. لا شعر.. لا جمال زائداً.. لا مساحات ضائعة. كلّ شيء في مكانه بالضبط وباقتصاد؛ لأنّ ربح شركتنا يتوقف على ذلك، وفي الواقع.. ربح المشروع كلّه ونجاحه. أنا أعتمد عليك لثقتي الكبيرة في مقدرتك وخيالك. هذا المشروع حيويّ جداً بالنسبة لنا.. ولك. إنّه البداية، حسب اعتقادي، وستتبعه مشاريع أخرى أضخم وأكبر منه.

شكرته وأخذتُ منه بعض الوثائق والمواصفات الأولية للمشروع ثمّ سألته عن الموعد المنتظر لتقديم الخرائط فأجابني فتهيّأتُ للانصراف. حينئذٍ رفع نظّارته وأخذ يحدّق في وجهي بعينين واسعتين محمرّتين:

ـ خابرني الدّكتور راغب، صديقي، تعرفه طبعاً.. والد آمال..

أخرج ورقة بيضاء من جيب سترته الصغير راح يمسح بها زجاج النظّارة وهو لايزال، بشكل يدعو للاستغراب ينظر في وجهي. بقيتُ واقفاً بهدوء وانزعاج، أُبادله النّظر. في حياة البشر، جميع البشر ربمّا، تتتابع التّجارب التافهة أو ذات المعنى، لتكوّن مواقف معقّدة متتالية يصعب فيها التقويم النهائيّ الصحيح؛ إلاّ أنّ هنيهة من الزّمن تنهض من بين أنقاض كلّ تلك التجارب والمواقف المختلطة لتمنح، بصورة فجائيّة، قيمة عظمى لا تثمّن لعمل نفسانيّ غامض بدر منك وأنت بين الوعي واللاّوعي، بين الغياب والحضور، بين الرّفض

والخنوع. كنتُ، آنذاك.. أمام المكتب العريض، في خضمّ هنيهة من هذا الطراز.

سألني متردّداً:

ـ لاتزال..؟

ـ نعم.

ثمّ حييته وانصرفتُ قبل أن يعيد نظّارته، الّتي نظفَّ زجاجها، إلى مكانها فوق أنفه.

كانت غرفة عملي واسعة مفرحة، تعبث فيها أشعة الشّمس على هواها؛ وكان مكتبي مكتظّاً بكلّ أنواع الأوراق المتجعّدة والمستوية، وكان عليَّ، بعد هذا التكليف من السيّد مدير الشركة، أن أرتّب شؤون عملي وأن أبذل جهدي كي أنجز ما أراده منّي في الوقت المحدّد.

ولقد أخبرته بالحقيقة حين تطرّق إلى ما يعتبره أخطاءً في تصاميمي للبيوت، ولا أدري لماذا شعرتُ بالحرج إذ تذكّرت ما قلته له. ما علاقته بالأمر؟

وهو لم يسألني، أساساً، لِمَ اخترتُ أن أكون مهندساً؛ وإذا بي أتبرّع له بسرد تاريخ موجز عن أسباب اختياري لهذه المهنة الّتي أتعيّش من ورائها. شيء يبعث على القرف حقّاً.

وقفتُ أمام النّافذة أتطلّع، من الطّابق الرّابع، إلى مناطق بغداد حولي. بساتين النخيل الممتدّة في الجادرية والنهر الملتوي حولها والجسر المعلّق والشوارع والسماء الصافية. لم أنم ليلة أمس إلاَّ ساعات معدودات، خمساً أو أقل؛ وها أنا أحسّ بتعب في عينيَّ وذهني. لابدّ لي من بضعة أيام للاستجمام، ابتعد فيها عن هذا

الخبال من حولي، لعلّي أستطيع بعد ذلك أن أعمل بهدوء وصفاء عقل.

لم يجرؤ أن يتجاوز سؤاله الكلمة الواحدة؛ لأنّه كان يعلم أنّ في هذه الكلمة المفردة خرقاً مفرطاً للحدود. وكنتُ على حق راسخ حين أجبته، أنا الآخر، بكلمة واحدة لا غير، مع ما أحسستُ به من ضيق لحشر اسم والدها في الموضوع. تلك الأيام الماضية، حين وجدتُ نفسي أسأل عنها قيل لي بأنها ابنة طبيب أخصائي يحمل شهادة (إيف. آر. سي. إس) في الجراحة، راغب البغدادي؛ وأنّها فتاة موزونة لها ميول ثقافية واسعة وهي من عائلة محترمة، نشأت نشأة طيبة. وهذا بالطبع هو ملخّص ما كان يمكن أن يقال آنذاك عن كلّ فتيات بغداد غير المتزوّجات. ولقد اكتفيتُ به لأنّي لم أكن أفكّر بالزواج رغم أنّي ـ لبلاهتي ـ كنت غارقاً في اللّعبة حتّى أذنيَّ. ثمّ تطوّع من تطوّع ليجمعنا أنا وعائلتها بجلسة في إحدى حفلات «البنكو» تبدو لمن يراها من بعيد بريئة؛ واشترطوا لذلك أن أُحضِر أحداً معي، مهما تكن صفته أو علاقته بي؛ فاستنجدتُ بقريبات أبي من «آل سليم» فوافقتْ إحداهنّ أن تأتي، فضولاً منها على الأغلب.

واجتمعنا معها ومع أبويها وبعض الأصدقاء، وتبادلنا النّظر طوال السهرة دون كلام وكانت قريبتي تصول وتجول وتحاور وتناقش وتتّهم؛ وكان الأمر بمثابة امتحان لا يمكن أن أشكّ بأنّي رسبتُ فيه. ولكم كنتُ قلقاً مضطرباً ضائعاً مأخوذاً بما يجري وبها وبالحياة. إنّها الشروط الأساسية لنمذجة البشر. لكنّ اللّيلة كانت جميلة مع ذلك، ذات شذا؛ والحضور في الحديقة الواسعة يتكلّمون كالعادة بأصوات خافتة والأشجار الطويلة ساكنة وأنا أحاول أن أراها جيّداً وأن أسمع ما تقول. كان الأب يدخن غليونه بتعالٍ والأمّ تعرض علينا باستمرار

خواتمها وحليها الذهبية، ونحن منغمرون بلعبتنا السخيفة المفضّلة. ثمّ قمنا نختار طعامنا فاقتربتُ منها وأعجبني أنّها انتظرتني لحظة كي ألحق بها. لم نتكلّم إلاّ كلمات قليلة بلهاء عن الطعام والحرّ، وكانت زينة وجهها حادّة الألوان؛ وحين عدنا بعد منتصف اللّيل أخبرتني قريبتي بأنّها يمكن أن تكون لي زوجة مناسبة لو قبل أهلها بي؛ وكنتُ قلقاً، قلقاً، قلقاً.

قصدتُ مكتبي وجلستُ أجمع الخرائط وأرتّبها. لا يعجبني كثيراً أن أستغرق في الارتماء واستعادة ما حصل هكذا. لعلّي أُريد أن أرسم خريطة للماضي كي أفهمه. هذا شأن جديد؛ إذ لا أحد يفكّر جدّيّاً بأعمال من هذا النّوع مع أنّها هي البداية لخطط قلب المجتمعات؛ ترسيم الماضي لمعرفة اتجاهه لخلق المستقبل. بكلّ بساطة؛ لأنّ ما حدث وما لم يحدث، صنوان؛ والفرق بينهما هو الاختفاء والظهور. مثل جبل الجليد.

رنَّ جرس الهاتف. كان المدير:

ـ مرحباً أستاذ هاشم. أرسلتُ لك إضبارة التكاليف المقدّرة والمساحات المطلوبة وبعض الخرائط المقترحة علينا. أرجو أن تبذل كلّ طاقتك الخلاّقة في هذا العمل.

ـ إن شاء الله.

ـ أنا واثق. شكراً جزيلاً.

ودخل الفرّاش يحمل إضبارة ضخمة تطلّ من جانبيها أوراق الخرائط السميكة فسلّم ووضعها بلطف على مكتبي. لم أُرد أن أستأذن المدير في الانصراف مبكراً هذه الظهيرة، رغم أنّي لم أنسَ أنّ لديَّ موعداً للغداء في النادي. ما كان هنالك من داعٍ للاستئذان، فأنا، في الأساس، قد صمّمتُ ألاّ أذهب لموعد الغداء ذاك؛ وهذا

يعني أنّ ما لن يحدث في المستقبل قد أثّر إيجابياً على الحاضر الآني، وعدّل من بعض أطرافه. والغرابة في الموضوع أنّي ظلّلتُ غير فاهم لماذا لن أذهب لهذا الموعد ولماذا وافقتُ أصلاً أن أرتبط به.

من جهة أخرى، لا أحسّ في نفسي أية رغبة في العمل هذه السّاعة؛ بي ميل للاسترخاء التامّ، أو لنقل بصراحة فقد تلبّسني عجز عميق وكسل وتبلّد. لعلّي أتسلّى بالذهاب لزيارة خالي رؤوف، ومشاركته طعام الغداء؛ ولعلّي أشتري طعاماً لنا نحن الاثنين نأكله بمرح وننسى. لنقل كباباً مع طرشي وخضروات من مطعم كباب «الأجداد» في الكرّادة الشرقيّة. ستكون مفاجأة ظريفة لخالي العزيز، وسيزداد سروره إذ نتحدث جدّياً أثناء الأكل. نعم، لابدّ لي اليوم أن أعمل ما يبعث الغبطة في النّفس.

وهكذا كان عليَّ، آخر الأمر، أن أستأذن السيّد المدير للخروج مبكراً هذا اليوم من أجل القيام بزيارة عائليّة مهمّة ولقد خيّل إليَّ أنّ السيّد المدير ابتسم قبل أن يردّ عليَّ ـ في الهاتف ـ رَدّاً رقيقاً بالإيجاب.

وبخفّة طائر خرجتُ من الشركة حوالي الثّانية عشرة والنّصف واشتريتُ كمّية من الكباب الفاخر مع كافّة ملحقاته المشهّية ثمّ اتجهتُ مسرعاً قدر طاقتي نحو الأعظمية. كنتُ فارغ القلب متجرّداً من الهموم حقاً، ولم يخطر لي أن أبحث عن سرّ ذلك؛ فليكن ما يكون. عبرتُ الجسر الحديديّ من الكرخ وأخذتُ الطريق الجميل المحاذي للنهر. كان النهار وضاءً والنهر يجري بتكاسل أبدي. لم

أمرّ بدارنا القديمة واستدرت نحو أحد الأزقة لأصل منها إلى مقر خالي رؤوف. فتح لي الباب أبو علاء وهو محشو الفمّ:

ـ أهلاً. أهلاً أستاذ هاشم. نعم، موجود.

أجابني قبل أن أسأله، واستمرّ:

ـ عاد قبل دقائق. خرج صباحاً يفتّش عن دار العجزة، وقد وجدها هذه المرّة. تفضّل.

كان خالي يبتسم ابتسامة عريضة سعيدة وهو يقف في باب غرفته، مرتدياً معطفه العسكري الثّقيل. حيّيته وسألته إن كان تغدّى فأجاب بالنفي. جلسنا متقابلين وبيننا الكباب والخضروات والطرشي والطماطمة.

ـ لابدّ لهذا الكباب الفاخر من شاي فاخر يعقبه، وسأحضّره منذ الآن.

أنهينا أكلنا ثم جلسنا مسترخيين، وكلّ واحد منا يمسك بقدح الشّاي. كانت في الغرفة برودة محتملة، تنعش النّفس إلى حدٍ ما. سألته:

ـ أأنت جادّ يا خالي في بحثك عن دار العجزة هذه؟ ما أغرب اسمها!

رنّتْ في صوته، حين تكلّم، أصداء غامضة لم ترتح لها نفسي:

ـ نعم، أنا جادّ، ولقد عثرتُ عليها أخيراً.

ـ وماذا تراك فاعلاً؟

ـ سأدخلها بعد حين. هنالك أسباب لذلك. أتحبّ قدحاً آخر من الشّاي؟

ـ بالطبع. شاي رائع.

ـ العالم، وهذا ما لا تعرفه، لم يعد يطيق مَنْ طعنوا في السنّ. تراهم يجابهونك بطلعة ثقيلة جهمة أينما توجّهت. صار الأمر عادة. هناك على الأقل، يعتنون بنا ويعترفون بأنّنا.. بأنّنا عجزة. وفي الحقيقة، هم يساعدوننا بعد ذلك على تقريب الأجل.

ـ ماذا تقول؟!

ـ لا تفزع يا بني هكذا، فهذه سُنّة الحياة.. أن تنتهي، وكلّ شيء إذ ينتهي بأجله فهو حسن. وهم، كما لاحظتُ، يعملون فقط على تقريب الآجال، ولستُ ضدّ رغبتهم هذه.

تملّكني ضيق بسبب كلامه، فوضعتُ القدح جانباً:

ـ اسمع يا خالي العزيز، أنت لستَ عبئاً على أحد، ويشرّفك أنّك لاتزال تعيش دون معونة من شخص ما.. أيّاً كان. فإذا كنتَ الآن بحاجة ماديّة..

ـ كلاّ.. آه.. كلاّ. أنت لا تفهمني. أنا أعمل ما أريده. أنا لا ألوم أحداً لأنّي جاوزت الثّمانين. كلاّ، الحمد لله على نعمة الحياة هذه؛ ولكن.. دعني أمت دون إزعاج أحد. لنمضِ مثلما أتينا.. غير مشعور بنا.

لا أدري لماذا بقيتُ صامتاً أنظر إليه. لم يكن حزيناً الحزن الّذي نعهده؛ كان في حالة أسى متسامٍ، أسى بعيد. ابتسم فجأة:

ـ لا. لا يا عزيزي، ليس هكذا. لا تدعني أتصورك تضطرب لأمور كهذه. اسمع.. أردتُ أن أسألك.

ـ بودّي أن أسترخي قليلاً يا خالي، أيمكن لي؟ أعني هنا.. على هذا الكرسي.

ـ إذا أردت. غالباً ما تأتي لزيارتي وأنت في غاية التعب.

ـ هذا صحيح.

ـ هل كلمتَ أباك واستمحته عذراً؟

لبثتُ ساكتاً لحظات، أريد أن أذكره بأني أمارس الاسترخاء بموافقته:

ـ هو الّذي وقف أمامي وكلّمني بالقوّة.

ـ أليس من حقّه أن يكلّمك.. يكلّم ابنه؟ لعلّه لم يعد يطيق صبراً على مقاطعتك له! لا تستغرب ما قد يشعر به الآباء تجاه بنيهم.

ـ كلاّ، لن أستغرب شيئاً من أب مثل أبي؛ ولكنك يجب أن تطلّع على سبب معاركته لي لتفهمه.

كان يشرب شايه بهدوء كأنّه يعرف كلّ شيء.

ـ لقد أوقفني تحت المطر ليلة أمس ليعنّفني بسبب ما سمع عن رفع اسمه من قائمة المرشّحين لعضوية محكمة التمييز.

ـ وأنت.. ما دخلك في هذه الشؤون؟

ـ هو يعتقد أنّي أثير فضائح تلحق الأذى باسمه وسمعته.

ـ آه.. هذا شيء جديد. ولماذا يظنّ مثل..

ثمّ استضاءت عيناه:

ـ أوه، كلاّ. لا أعتقد أنّ له الحقّ في ذلك. كلاّ، ولكن.. اسمع يا بني.. من يدري؟ في هذا العالم المضبّب..

كنتُ على شفا الاستسلام لسِنَةِ نوم لذيذة:

ـ ماذا في هذا العالم المضبّب، يا خالي؟

ـ أمور كثيرة لا أعرف عنها شيئاً البتّة. أنت نفسك، أجهل عنك أشياء جوهريّة تزعجني حين أفكّر بها. لعلّ والدك مثلي.

ـ والدي لا يحبّني يا خالي.

ـ لا تظنّ به الظنون يا بنيّ.

ـ إنّه يكرهني مثلما كره والدتي من قبلي. لا يحبّني.. هذا هو كلّ شيء.

ـ لا تحشر والدتك المرحومة في هذا الأمر. رحمة الله عليها. كان يحبّها ويعطف عليها. انظر إليه، لم يتزوّج بعدها.

ـ لأنّه يعرف أنّه لن يلقى مثلها.

ـ هي.. نعم.. ليس سهلاً إيجاد مثيل لها، رحمة الله عليها؛ ولكن، لا تحشرها بينك وبين أبيك. فكّر بأنّه الوحيد المتبقي لك وأنت له. ولو تعلم كم يسعد بنجاحاتك.

لم أرَ وجه أبي يتفتح بالسعادة، مثلما رأيته وأنا أخبره أوّل مرّة بتصميمي على الزّواج. فَقَد تحفّظه المعتاد فجأة، وبدا كأنّه يروم أن ينهض لاحتضاني. كان ذلك من جملة الأمور العديدة الّتي استبعدها منه. ولأنّي كنتُ مأخوذاً بما نويتُ أن أعمل، فلم يدهشني تصرُّفه كثيراً. ورأى إنّي أحسنت الاختيار لأنّه يعرف عائلة الدّكتور راغب وقد سمع عنها كلّ ما يسّر، وتمنّى لي أن أوفّق في مشروعي ذاك الحيوي؛ ثم.. انقطع حديثه كما بدأ، وانتحى بنظره زاوية من الغرفة ليضيع فيها، ساهماً غارقاً في موجة من ذكرى بعيدة. بعد ذلك، هبَّ قائماً ليلفّ ذراعيه حولي مخفياً عنّي وجهه وتعابيره.

ـ أعلم ذلك. إلاَّ أنّ الإخفاقات هي الّتي يجب أن يهتم بها الوالد، ألا ترى ذلك معي؟

ـ أنت تميل اليوم إلى سوداويّة لا أحبّها. دعنا نخرج نتمشّى على شاطئ النّهر ونملأ أرواحنا بالهواء النقيّ ونتملّى من رؤية بيتكم العتيق مثلي. هيّا، مادمتُ لن أتركك تسترخي كما تشاء. هيا بنا.

كانت الشّمس، تلك السّاعة من بعد الظهر، لا تزال محتفظة بحرارة أشعتها، وهي تغمر الجهة الغربية من السماء الرّقراقة الزّرقاء

بفيض من تألّقها الأبديّ. بدا لي النّهر مرتمياً على الأرض مستكيناً منكسراً في جريانه غير المسموع. توقفنا على مبعدة من دارنا القديمة، بعد أن سرنا الهوينا مسافة منها ثمّ عدنا. سألتُ خالي:

ـ من يسكنها الآن؟

ـ نفس العائلة الّتي اشترتها منكم قبل.. قبل كم من الوقت؟ أكثر من عشر سنوات، أليس كذلك؟

ـ نعم؛ حين بلغتُ الثامنة عشرة وأمكن لي أن أتصرّف بأموالي.

ـ هذا صحيح. لم نستطع، في وقته، أن نقنع مديرية أموال القاصرين ببيع حصّتك لبناء دار أبيك في الحارثية. هذا صحيح. نصحونا بالانتظار إلى حين بلوغك سنّ الرّشد. كنتُ، كما ترى، أحمل مع أبيك هموم العائلة.

ـ ولاتزال يا خالي؛ لاتزال.

ـ نعم؛ رغم أنّي أحاول أن أتحاشى هموماً لا تطيقها أعوام عمري.

كان يحمل عصا متينة ملتوية يتكئ عليها، وكان البعض من المارّة يحيّونه باحترام. توقّفنا قرب ساحل النّهر، غير بعيد عن اللّسان الأرضي الداخل في الماء. تطلّعتُ إلى الشرفة والشبابيك الخشبية النحيلة والجدران. كأنّي أرى كلّ هذه الإشارات للمرّة الأولى. كانت الألوان باهتة وكنتُ بارد القلب وأنا أحسّ بغموض خالي رؤوف واقفاً جنبي. لصق هذه الشرفة ذات المحجر الخشبي المتآكل، توجد غرفة الجلوس المبهجة المخصّصة لشرب الشّاي عصراً؛ ولقد حافظتْ عمّة قادرية على عادتنا تلك بعد وفاة أمّي سناء الّتي كانت هي الّتي ابتكرتها وأصرّت أن ندرج عليها، خاصة في أيام الشتاء الجميلة. بعد ذلك، تتراصّ الغرف الأخرى جنباً إلى جنب. غرفتي الصغيرة

ملحقة بغرفة والديَّ، ثمّ غرفة أخرى خصّصتها أمّي للعمل، عملها هي في الخياطة وعمل والدي إذ يجلب معه أحياناً أضابير من محكمة للدراسة. وغالباً ما كانا يلجآن إلى هذه الغرفة لتكملة تصارخ بينهما.

ـ يُقال إنّ جسراً ضخماً سيُشيّد بدل جسر الكاظمية القديم، يربط بين الأعظمية والكاظمية. هل سمعتَ شيئاً عن هذا؟

هززتُ رأسي أن نعم ولبثتُ على تطلُّعي المستديم للمنزل. من العبث بالطبع أن نتساءل عن العلاقة بين التراب والأحجار وبين شقاء البشر وسعادتهم؛ فمهما بلغتْ سعادة البشر من الشدّة ومهما عمق شقاؤهم، فإنّ الصخور الّتي رافقتهم لن تجيب من يسألها عمّا حدث. وغرفة أبويَّ تلك لم أدخلها لسنوات طويلة؛ وأقنعتُ عمّة قادرية أن ننام في غرفة الجلوس المطلّة على النهر من خلال الشّرفة. خيّل إليَّ أنّ شعرها الأسود الطويل ترك آثاراً على الأرض لا يمكن للبشر أن يمحوها؛ وكنتُ مقتنعاً بأنّ من التجديف أن ندوس بأقدامنا على ذلك المكان حيث تهاوت للمرّة الأخيرة. وأخرجوا تابوتها من هذا الباب ورفعوه وخفضوه ثلاث مرّات.. علامة وداعها لأهلها الّذين تركتهم في الدّار.

ـ لنسر قليلاً يا بنيّ. لا تزد تعبك بذكريات قديمة لا طائل من ورائها.

كان قوله حاسماً، وكنتُ أرى رأيه. لستُ من حملة الذّكريات، ولكننا مضطرون أحياناً لوضع أمور الحاضر في نصابها.

ثمّ رأيته يسير بشكل مضحك أمامي؛ يضرب بعصاه الغريبة تلك، أرض الشارع؛ كأنّه شاعر أعمى آخر يبحث عن تتمّة لبيت شعري من

أبيات ملحمته. مشيتُ ببطء أتبعه. كان ذلك المنزل منزلي؛ كان أنا، وهو إذ يبقى قائماً ليمكنني أن أراه، فمن أجل أن يستمرّ وجودي أنا الآخر.

ـ هذه البيوت سيصلها الاستملاك عن قريب.

وأشار بعصاه إشارة شملت نصف الأفق:

ـ ويقال إنّ بيتنا يمكن أن يُستملك؛ لهذا اشترى أبو علاء سيارة بمدّخراته، واثقاً أنّه سيقبض مبلغاً جسيماً لقاء حصّته في البيت.

ـ كم تبلغ حصّتك أنت من هذا البيت، يا خالي؟

ـ أنا؟ أنا ورثتُ ما يقارب السُّدس، وهو كافٍ جداً لسكناي.

ـ ألهذا السّبب تفكّر في الدخول إلى دار العجزة؟

نظر إليَّ نظرة مستريبة كأنّي خنته، ثمّ هزَّ رأسه وعصاه:

ـ من يدري! أنا لا أدري؛ ولكني سأدخل تلك الدّار على كل حال.

ـ أنت تجعلني حزيناً فوق حزني، يا خالي العزيز.

ـ ليكن.

توقّف عن مسيره وحدَّق في وجهي. كانت في عينيه حدّة وتصلّب، وحين تكلّم كان صوته أكثر حدّة وتصلّباً:

ـ أنت يا بنيّ أحزنتَ أناساً كثيرين في هذه الفترة القصيرة الماضية. ربّما، دون علمك. لستُ متأكداً ولكن.. يبدو أنّ عليك أن تجرّب هذه الحالة، مرّة على الأقل.

ـ ما هذا يا خالي؟ أنت منزعج؟ أم لعلّي أسأتُ إليك دون قصد؟

ـ كلاّ يا هاشم. أبداً؛ إنّما لديَّ حكاية معك قديمة، هي أشبه بالسؤال؛ حكاية ماتزال تدور في باطني وتفلقني ولم أستطع التخلّص

منها، لذلك رأيتُ أن أرويها لك وأسألك عنها أيضاً، لعلّي أسمع جواباً.

كان يسير بخطوات متزنة، منسجمة مع ضربات عصاه؛ وكنتُ أتمشّى حذاءه يداخلني بعض القلق؛ فهذا الخال المتقدّم في السنّ يحبّ، فوق حبّه لي، أن يمارس في لحظات حاسمة، مواجهة بعض المواقف واختراقها، لاستخراج ما يعتقد أنّه الحقيقة فيها.

ـ اسمع يا هاشم. نحن في شهر شباط، أليس كذلك؟

ـ ليس بعد. أواخر كانون الثاني.

قطّب جبينه:

ـ وهذه السنة هي ١٩٧٦، على الأغلب؛ لأنّي بلغت الثّمانين سنة ١٩٨٣. أنا من مواليد سنة ١٨٩٣.. ١٤ آب. برج الأسد.

ثمّ التفت إليَّ؛ ومن تلامع عينيه الهرمتين، أدركت أنّ لديه ما يقوله وهو مصمّم عليه.

ـ أنتَ، تتذكّر بالطبع، كنتَ دعوتني لحفلة زفافك، أعني تلك اللّيلة، قبل سنتين تقريباً؟ سنة ونصف! لا يهمّ. كانت بطاقة الدّعوة جميلة، تفوق في جمالها كلّ ما عرفته في حياتي من بطاقات؛ حتّى إنّ أبا علاء تأمّلها وقتاً طويلاً ثمّ تنهد وقال بأنّ من الواضح أنّها دعوة لحفلة خاصة جداً ليس لنا مكان فيها.

شعرتُ حالاً بتوتّر في أعصابي، إلاّ أنّي قرّرت أن أدعه يفرغ ما في جعبته دون تعليق أو استفسار. لم أكن مهيأً لهذه المفاجأة منه؛ وكانت هنالك جماعات صغيرة من الطيور البيضاء تتابع النّهر في مسراه، صاعدة نازلة في حبور.

بقي ساكتاً هنيهات كأنّه يحاول أن يتذكّر:

ـ لم تكن على كلّ حال، دعوة خاصة جداً، لكني اعتقدتُ مثله أنّها كذلك وانتظرتُ منك.. هل أنت الّذي طلب مني ذلك؟ كلاّ. لا أعتقد. المهمّ، لا أدري لماذا تصوّرتُ أنّك ستأتي لتصحبني إلى مكان الدّعوة في ذلك النّادي.. نادي العلوية بالطبع. وكتكملة لهذا التصوّر انتظرتك، لابساً أحسن ما عندي من كلّ شيء، منذ الخامسة. هكذا. قلتُ إنّ السّاعة الخامسة هي الوقت الملائم لمجيئه رغم أنّ الدّعوة تشير إلى الثامنة مساء. وحين جاوزت السّاعة السّابعة والنّصف أقنعتُ نفسي بأنّي كنتُ مخطئاً في اعتقادي. قلتُ لأبي علاء إنّ تصوّري كان في غير محلّه؛ من أين له الوقت والعقل ليتذكّرني! صحيح؟ واعتقد أبو علاء أنّ من واجبه أن يخرج معي ليساعدني على إيجاد سيارة أجرة، إذ لم يخطر لي التراجع عن الحضور مهما كلّف الأمر، وأيّدني أبو علاء في هذه الفكرة.

حسناً؛ سيارة الأجرة لم تكن مشكلة وقد استقلّلتها وجئتكم إلى النّادي. يا للأضواء! يا للروعة! والكلّ في أجمل ملبس وعلى عجل. ولحسن الحظّ، لم يخني مظهري فدلّوني باهتمام على الطريق إلى القاعة، حيث كانت الموسيقى تُسمع من بعيد. وكنتُ في كلّ تلك المشابكات في المواقف، أعني سيّارة الأجرة والأضواء والنّادي والخدم الرّسميين وفخامة الأثاث، كنتُ أتساءل.. من سينجدني أخيراً.. إلاّك؟

وهكذا، ما إن اجتزتُ باب القاعة حتّى وسّعت عينيَّ مفتّشاً عنك. كانت السّاعة قد جاوزت آنذاك الثّامنة، وبدا لي المدعوّون جالسين في أماكنهم بشكل غير طبيعيّ. لا أدري كيف ولكن.. بهيئة غير طبيعية. أحياناً تحسّ الصورة دون أن تفهمها ودون أن تفهم لماذا تحسّ على هذه الشّاكلة. كانت صورة المدعوين تعطيني هذا الانطباع

تغامض. ومن دون خلق الله جميعاً، لم أعثر في تجوالي المضطرب حذو الجدران وبين الموائد، إلاّ على والدك، يحمل معه قلقه مثلي.

توقّف عن سيره البطيء الموزون ونظر إليَّ رافعاً رأسه وصدره. تبرقع وجهه الملتحي بصبغة اندهاش وتحكّم:

ـ كان مهتاجاً؛ يكاد ينفجر هياجاً وغضباً وخجلاً وذلاً وكلّ ما يمكنك أن تتصوّره من عواطف وانفعالات تعرفها أو لا تعرفها. صرخ بي «رؤوف أفندي» وهو يمسك بإحدى ذراعيَّ ويشدّها بقبضته «يا رؤوف أفندي. تعال. تعال» وقادني إلى مائدة قريبة من وسط القاعة، حيث تستقرّ عالية فخمة، كعكة بيضاء تتلألأ. كانت معه عمّتك قادرية ونساء لم أرهنَّ من قبل وخمّنتُ أنهنّ من الأقارب.

عاد يمشي مع عصاه، خافضاً بصره إلى الأرض، يتكلّم وكأنّه بمفرده:

ـ كان الجميع في وجوم، يتبادلون النّظرات ويتهامسون، وكان وجه أبيك شاحباً ويداه ترتجفان بشكل ظاهر. سألوني عنك. عجباً.. قلتُ لهم؛ فشرحوا لي بأنّك خرجت في السّاعة الخامسة بعذر اصطحابي إلى البيت.. بيتكم.. لأكون مع العائلة، وأنّك لم تعد وأنّ المدعوين ينتظرون وكذلك العروس وأهلها وأقاربك وأقاربها والناس أجمعون. عجباً.. بقيتُ أردّد دون أن أعرف بم أجيب. كنا، آنذاك، في خضمّ الهدوء الّذي يسبق العاصفة. إذ هَبَّ بعد وقت وجيز، جمع من النّاس في جهة قريبة منا وتوجّهوا بشكل مبهم نحو مائدتنا. كانوا كأنّهم يزحفون، غير مرئيّين؛ وأحاطوا بنا بكلّ سكون ولين، فهمس لي والدك بأنّهم أهل العروس. كانوا في أشد حالات الذّهول والتشتّت، ولكنهم تكلّموا باتزان وأدب. اعتذروا عن البقاء مدّة أطول وتمنّوا أن يكون السّبب خيراً وأنّ الغائب عذره معه؛

وكانت السّاعة قد جاوزتْ الحادية عشرة والنصف حين انسحبوا، وبقي أهلك جالسين يتلفتون من هنا إلى هناك ليروا من الّذي بقي يقاوم ولم ينصرف بعد كأنّها.. لا أدري ماذا.. مباراة أو معركة. والغريب الغريب، بعد ذلك، في الأمر كلّه، أن أباك وعمّتك ورهطهما قاموا بعد فترة فاعتذروا وأخبرني والدك بأنه سيراجع حاكم التحقيق الخفر ليساعده في البحث عنك وإخبار الشرطة، ثمّ طلبوا مني أن أسمح لهم بالانصراف.. كأنّي قادر على منعهم.. فوافقتُ وإذا بهم ينصرفون ويتركونني بمفردي في النّادي، جائعاً والسّاعة تقارب منتصف اللّيل، حزيناً مهدود القوى، لا أدري هل سأستطيع الوصول إلى بيتي أم لا.

وأطلق خالي العزيز رؤوف بعد ذلك فرقعة من الضحك الشديد المتواصل، هَزَّ بدنه وأوقع العصا من يده، فانحيتُ والتقطتها ثمّ أعدتها إليه فتناولها شاكراً وهو يمسح عينيه من فيض الدّموع:

ـ هكذا تجدني يا هاشم، أملك سلاحي المتواضع ضدّ الدنيا؛ فهي تسخر مني فأجيبها على سخريتها بالضحك مما تفعل بي. ولا تعجب من قولي إنّ الضّحك في مواضع كهذه يمنحك رؤية جديدة تتبدّى لك فيها شؤون البشر هزيلة وهزلية. قل لي، هل أخبرك أحد قبلي بما حدث تلك اللّيلة هناك، ولو بعد سنة ونصف؟ لا أحد، بالتأكيد.

أنهى مسح دموع الضحك ورجع إلى مسيرته ذات الوتيرة الواحدة.

ـ لا تبدو عليك الرغبة في الكلام؛ ولكني أرجو أن تفهم بأنّي يجب أن أروي لك هذه الحكاية الّتي أخفيتها عنك طوال هذا الوقت. إنّها تخصّك أيضاً، وهي، كما قلتُ لك، سؤال دائم يستقرّ

في أعماقي. أردتُ أن أراك في صباح اليوم التالي لتلك اللّيلة، إلاَّ أنّي وقعتُ مريضاً طريح الفراش. كانت ليلة ممطرة.. أتتذكّر؟ يجب أن تتذكّر أينما كنتَ.. ليلة ممطرة مضبّبة لعينة؛ وخرجتُ غير مهتمّ بشيء فأصابني برد شديد قبل أن أجد سيارة أجرة تعيدني إلى البيت بعد منتصف اللّيل بكثير. ماذا جرى لأهلك كي يتركوا شيخاً مثلي وحيداً وسط بغداد، بغير واسطة نقل ولا معونة من أحد؟ الآن، إذ أتأمّل ما جرى لهم تلك اللّيلة، أدرك مدى وقع الضربة عليهم وعمق الضياع الّذي وجدوا أنفسهم فيه. بعد هذا.. بعد هذا.

ـ أنا آسف، أنا آسف حقاً يا خالي. لم أعلم بمرضك إلاَّ بعد حين.

رفع ذراعه بحركة من يروم إبعاد شيء عنه:

ـ أعرف ذلك. لم يهمّني كثيراً. أنا لا أريد أن أقول لك شيئاً معيّناً يا بنيّ. قلتُ لك إنّي لستُ قادراً على الفهم أغلب الأحيان. كلّ ما في الأمر أنّ ما بدا لي.. أعني ما فكرتُ فيه خلال هذا الوقت الّذي مضى.. أو على الأصحّ.. اللّعنة.

ثمّ ضرب الأرض بعصاه عدّة مرّات:

ـ ما أريد أن أقوله ببساطة هو.. اسمع يا هاشم يا ابني، أنت إنسان عزيز عليَّ، عزيز عليَّ جداً لو تعلم؛ وما أقوله لك ينبع من هذه المحبّة فقط. اسمع، أنت تخطئ في اختيار الطريقة.. طريقتك هذه.. صفها بما تشاء؛ وتخطئ في اختيار الأشخاص أيضاً. أنت تخطئ مرّتين، وليس هذا قليلاً، بل لعلّه أكثر ممّا يجب.

ثمّ توقفّ مرّة أخرى؛ وكان، مرّة أخرى، متحفّزاً شادّاً جسمه ورافعاً إلى الأعلى نظره وصدره وهو لايزال يمسك بعصاه ذات العقد. كان النّهر وراءه وخطّ الضفّة البعيدة الأخضر؛ وكانت على

وجهه المليء بالشعر الأبيض أمارات تصميم وعزم فارغين تتمركز حول عينيه وفمه. لم أبتسم وأنا أتطلّع إليه يقف بفخر كبير هكذا أمامي.

ـ أنا آسف لأنّي لا أملك الآن غير الأسف. إلاّ أنّي سأتذكّر كلماتك هذه مدى العمر بالتأكيد وسأفكّر فيها مليّاً..

ـ لعلّ الأمر ينفعك أخيراً؛ فأنت، كما قلتُ لك ولم تسمعني، أنت أحزنت الكثيرين.

ـ هذا صحيح، لقد قلتَ لي هذا. أعدك بأن أفكّر فيما قلته لي بحبّ وبإخلاص يا خالي.

ـ أرجوك يا بنيّ، افعل ذلك.

كنا نتبادل النّظر؛ وكنا، كلانا، نغالب جيشان العواطف في دواخلنا، لئلاّ نفسد رفعة هذه اللّحظات ورونقها.

ـ دعنا نَعُدْ فقد ابتعدنا كثيراً وأنا أشعر ببعض التعب.

كان الوقت قد جاوز الخامسة مساءً وأنا أخترق شارع ١٤ تموز متّجهاً نحو الجسر المعلّق، قاصداً مقرّ الشركة لعلّي أستطيع العمل بعد انتهاء الدّوام المعتاد وخروج الموظّفين. كنتُ أفكّر في أن ما حدث لخالي من إحراج وارتباك وصدمة وذهول وتبلّل ومرض، يتأسّس على أمر لم يحدث، على ما يشبه الفراغ، ما يشبه العدم. في يّ عالم نعيش إذن، ينزلق فيه المنطق إلى حدّ تصير المعلولات الواقعية معه بغير علّة؟

كنتُ حزيناً بهدوء، صامتاً في داخلي، لا أريد أن أهزأ بأحد.

عبرتُ الجسر المعلّق ووصلتُ إلى مقرّ الشركة وفتح لي الباب

حارس الشركة محيّياً فدخلتُ مكتبي وأضأت المصابيح والمدفأة ثم توجهت إلى المكتب وفتحتُ الأضابير وأوراق الخرائط المطوّية.

كنتُ أعتقد أنّي في شوق للعمل وأن لديّ أفكاراً عن هندسة البيوت في العراق قد تصلح لتجديد طراز دورنا القديمة والحديثة وتغيير نسق معيشتنا. إلاَّ أنّ الاعتقاد غالباً ما يبتعد عمّا يمكن فعله حقاً؛ فعلى المكتب تكوّمتْ الأضابير والأوراق تنتظر خطّ الإبداع منّي، على غير جدوى. لم أكن على استعداد للعمل ولا حتّى للتفكير فيه جدّياً؛ وكنتُ أقاوم رغبة عبثية عارمة للانزواء والتخفّي.

أردتُ أن أشرب منبّهاً. شاياً أو قهوة، فقمتُ وحاولتُ الاتصال تلفونياً بالحارس، إلاَّ أنّه لم يجبني. قصدتُ النّافذة وفتحتُ شبّاكها. كان الغروب قد اكتمل والسّماء انطفأت واسوّدت الآفاق. أُنيرت بعض المصابيح هنا وهناك، حمراء أو زرقاء. كنا نشرب الشّاي مجتمعين في الغرفة الملاصقة للشرفة، قبيل الغروب.. أمّي سناء وأنا وعمّة قادرية وأبي أحياناً. شاي أحمر صافٍ مخدّر كما يجب، مع النعناع الأخضر النّظيف وشرائح الجبن والخبز المحمّص. وكانت أمّي سناء تبذل جهدها كي نبقى، أنا وهي، في زاوية أو ركن لا يشاركنا فيه أحد. كنتُ أميل إلى الدّخول في حلبة الآخرين، لكنها كانت تستحوذ عليَّ وتغرقني بحنان وحبّ لا فكاك منهما. أوّل يوم ذهبتُ فيه إلى المدرسة، كان عيداً ومأتماً في الوقت نفسه؛ فلا هي فَرِحَة تماماً ولا هي حزينة بشكل أكيد. كانت تتراكض في كلّ الأنحاء لتحضير ما يجب تحضيره؟ ووالدي ينادي، منتظراً قرب الباب الخارجي، دون فائدة. لم تكن تريد أن أفارقها أو يشترك آخرون في العناية بي. وها أنذا أراها كأنّها أمامي هذه اللّحظة، تكاد ترمي بنفسها من الشرفة لتمسك بي، وهي تراني أعود من المدرسة مع

خالي. ذلك اليوم الأوّل لي في الدّوام المدرسي، طبختْ لي ما أحبّ من طعام؛ وجلسنا كلّنا، أنا وهي وخالي وعمّة قادرية، نأكل بسعادة لم يمرّ عليَّ مثيل لها بعد ذلك. وفي جلستنا تلك تمنّتْ عليَّ أن أصير مثل أبيها، جدّي، مهندساً معمارياً يبني البيوت الجميلة للناس ويضمن لهم الرّاحة والاستقرار. وأجاب عني خالي بأنّ هذه هي أحسن المهن لأنّها تجمع بين الصناعة والفنّ وهي لذلك الأرقى في العصر الحديث. كنتُ، لاشكّ، في السّادسة من عمري، وقد رأيتُ جليّاً خَدّيْ أمّي سناء الورديّيْن يزدادان احمراراً وعينيها يشعّ منهما تألّق ساحر مندّى بدموعها.

وكنتُ على يقين طفولي ثابت بأنّ حالنا الهنيّة هذه ستستمرّ أبد الآبدين. إلاّ أنّي أرى الآن بأنّ الحقيقة هي أنْ ليس في الحياة ديمومة من أيّ نوع كان. إنّ فيها تشكيلاً للمواقف فقط، تشكيلاً يتمّ بأبعاد وأطراف معلومة حتّى يصل إلى نقطة ما، ثمّ.. يبدأ تشكيل لمواقف أخرى. ليس في الأمر استمرار، بل تكوّنٌ وتجمّعٌ لتشكيل المواقف.. هذا هو كلّ شيء؛ إذ لا ديمومة في الكون، وأنا أحبّ ذلك. أحببتُ ذلك النحّات الّذي كان يدمّر، في الصّباح، تماثيله الّتي عانى في نحتها طوال اللّيل. كلّها، كلّها. ذلك أنّ التّشكيل، بحدّ ذاته، هو الجوهر وهو المهمّ؛ وما تبقى فإلى..

انكفأتُ عن النّافذة وعن اللّيل وعدتُ أجلس إلى مكتبي. فارقني الخمول وشعرتُ أنّ بإمكاني أن أشتغل أو أن أتهيّأ نفسياً، على الأقل، للاشتغال. كنتُ، كلّ مرّة، أتبع هذه الطريقة في التحضير للعمل، أنتج إنتاجاً جيّداً ولافتاً للنظر. لعلّ في الجسد والذّهن طاقات كامنة يجب أن تُشحذ وتُساق لكي يمكنها التحرّك والإبداع.

رنَّ جرس الهاتف فجأة رنيناً عالياً كسر صمت الغرفة الكبيرة

وأزعجني. كان هو رنين الجهاز المرتبط بالخارج مباشرة. خطأ في الرقم، لاشكّ؛ فالجميع يعرفون أنّ دوام الشركة قد انتهى؛ ومن يجهل ذلك فلا أهمّية له ولن يسمع جواباً. لبثتُ جامداً أنتظر أن يتوقّف هذا الإزعاج غير المنتظر. عبثاً. ثمّ لفت انتباهي هذا التواصل غير المعتاد للرنين. إنّ هنالك، على الطرف الآخر، شخصاً يعلم عن يقين أو ما يشبه اليقين بأنّ في الشركة من سيجيب على ندائه. أيكون هو السيّد المدير، مَرَّ من هنا فرأى الضوء في غرفتي فخمّن أنّي عدتُ لأشتغل فتملّكه هوس الحديث معي؟!

كان الصوت نسائياً:

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير.

ـ انتظرتك حتّى الرّابعة. هل شغلك أمر مفاجئ أم أنّك تخشى رؤيتي إلى هذا الحدّ؟

ـ لا هذا ولا ذاك. لم أرد أن أحضر، هذا هو كلّ شيء.

ـ ممكن؛ لأنّي أعتقد أنك غير قادر على الكذب.

ـ لا يمكن البتّ بهذه القضية هكذا.

ـ أنا أستطيع أن أبتَّ بها. هنالك من يحترمون الكذب. أنت لستَ منهم. أنت محترف خوف.

ـ هذا شيء جديد.

ـ ليس بالنسبة لي، على كلّ حال؛ ولا علاقة له بندائي هذا. لقد أخبرتك أمس بكلّ وضوح بأنّ من الضروري أن نلتقي، لمصلحتك ولمصلحة آمال وكلّ من له علاقة بالقضية. ولقد بدا لي أنّك فهمتَ ما أقول ووافقتَ أن نلتقي اليوم في النادي، وتلطّفتَ فدعوتني للغداء.. ثمّ.. إنّك لم تتصل حتّى لتعتذر وتركتني جالسة ببلاهة

ثلاث ساعات متوالية أتطلّع إلى وجوه الداخلين كأنّي.. كأنّي.. أعوذ بالله.

ـ دكتورة سلمى، اسمعي من فضلك. لن نستطيع التفاهم إذا فقدتِ سيطرتك..

ـ أنا لم.. ولن أفقد السيطرة على أعصابي، تأكّد؛ ولن أترك أحداً ينجح في محاولة ذلك؛ لكن ما يحيّرني هو أنّك لا تريد أن تتفاهم.

ـ بالعكس، أنا أريد التّفاهم معك.

ـ حسناً، لنجلس إذن ونحلّ المشكلة دفعة واحدة.

ـ المعذرة؛ لعلّي لم أكن واضحاً؛ ما أريد التّفاهم معك عليه هو ألاّ نجتمع وألاّ نبحث في حلٍّ لمشاكل تخصّني.

ـ ماذا؟ ماذا تقول؟ ماذا قلتَ؟ أعده عليَّ. أعده من فضلك.

ـ ما فائدة هذه الملاسنات؟ أنا غير قادر على الاستمرار فيها، ويكفيني اليوم ما سمعت. لا رغبة لي في التحدّث أو في حلّ المشاكل الخاصّة بي بناء على طلب الآخرين. هذا ما أرفضه.

ـ هل تعني أنّك لا تروم رؤيتي لأني أنا الّتي طلبتْ ذلك منك؟

ـ كلاّ؛ ليس هكذا. إنّني في حالة نفسية لا تسمح لي..

ـ أنا أفهم. لعلّك على حق. هذا صحيح. حسناً، هل تتّصل بي إذا تبدّلت حالتك أو.. تحسّن وضعك النّفسي؟ أنا لا أريد إزعاجك. تأكّد يا هاشم.. يا أُستاذ هاشم؛ إن لديَّ أمراً في غاية الأهمّية، أردتُ أن أعرضه عليك وأن أناقشك فيه. دع آمال وقضيّتها جانباً؛ هناك شيء آخر. صدّقني. أقسم لك. والله..

ـ ما هذا يا دكتورة سلمى؟ لماذا..

كان النّشيج خافتاً جداً، لا يُسمع إلاّ بصعوبة.

ـ لماذا أنتِ بهذه الحالة؟

ـ لا شيء يهمك مما أنا فيه. ساعدني بأن تنصت إليَّ، ودعني أحدّثك ولو.. ولو في محلّ عام.

كان الأمر معي أنّني لم أكن مهتمّاً بما كانت تقول قدر اهتمامي بخنق تلك الاندفاعة المبهمة الّتي كانت تتحرّك في جبهة من نفسي وتهفو إلى إجابة طلبها والاتفاق على لقاء سريع. وكنتُ، في ثانية، أهمُّ بإعادة السمّاعة وقطع المكالمة، وفي ثانية أخرى، أودُّ أن أهتف بها أن تعالي إلى هنا بأسرع ما تستطيعين. مكثتُ صامتاً، معاركاً نفسي؛ وكنتُ أسمع أنفاسها تتردّد في أذني:

ـ اسمع يا أستاذ هاشم قبل أن تقطع الخطّ. أنا لستُ المرأة الّتي تتصوّرها. لقد خيّل إليَّ أنّك عرفتَ بعض الأشياء عنّي خلال اللّقاءات القصيرة الّتي جرت بيننا صدفةً. أنا امرأة متزوّجة، أنال ثقة زوجي وعمّي وآمال حين أتصرّف كما أتصرّف الآن معك على المكشوف ودون مواربة؛ ذلك أنّي أعتقد بأنّي أحارب مع الجهة صاحبة الحق في المعركة، ولذلك سأحارب إلى النهاية. ولكني لستُ في حرب معك. أنا أشعر عن ثقة بأنّك إنسان تستحق أن يُتفاهم معك، ولذلك تجدني غير مبالية بتقاليد حياتنا هنا وبما يمكن أن يُتقوّل به عني. والآن، بما أنّك حائر فيما تجيب فسأنسحب هذا المساء مؤقتاً...

ـ كلاّ. كلاّ. انتظري.

ومرّت لحظات:

ـ أين أنتِ الآن؟

ـ لماذا؟ في المستشفى بالطبع. سأخرج بعد ساعة واحدة.

ـ هل تظنّين النّادي مكاناً..

ـ كلاّ. غير ملائم هذه السّاعة..

ـ لنترك الأمر إلى الصدف تدبّره.

ـ لا تبادر إلى الاستسلام بسرعة. انتظر. هناك، لا أدري.. هناك قاعة في فندق بغداد، في الطابق الأوّل، يمكن للمرء أن يجلس فيها على راحته وأن يتكلّم بحرّيّة دون مشاكل أو شبهات سخيفة.

ـ لم أرَ قاعة كهذه من قبل في فندق بغداد!

ـ هي موجودة مع ذلك. أستطيع أن أكون بعد حوالي السّاعة والنّصف من الآن.. هل يلائمك هذا؟ قل لي إذا لم ترد رؤيتي. لا ضير عليك. أرجوك.

ـ إلى اللّقاء.

كانت القاعة الواسعة في الطّابق الأوّل من فندق بغداد، قاعة انتظار؛ وقد خطر لي أن ضيق المكان أمام مكتب الاستقبال هو الّذي ألجأ المهندسين لبناء هذه القاعة الضخمة. ورغم أنّي وصلتُ قبل الموعد بأكثر من عشر دقائق، فإنّي وجدتها جالسة تدخّن في زاوية من القاعة وأمامها فنجان قهوة. قلتُ لها بعد أن سلمتُ فردَّتْ عليَّ ببرودة، إنّي حاولتُ أن أصل قبلها لئلاّ تشعر بحرج وهي بمفردها، فهزّتْ رأسها شاكرة ونفثتْ دخان سيكارتها. أنقذنا نادل الفندق من صمت الدّقائق الأولى حين وقف على رأسي فطلبتُ، لدهشتي، كأس ويسكي مع الثّلج. لاحظتُ أنّها رمت معطفاً ثميناً على المقعد بجوارها.

ـ لم أسمع عنك أنّك تشرب الويسكي في مثل هذه السّاعة. كان فستانها في خضرة خفيفة تقطعه من بعض الجهات خطوط سوداء ملتوية، وكانت تخريجات القماش واشتباكاته مرتّبة بحيث تبرز أكثر ما يمكن من صدرها ولا تدع للناظر أن يشكّ في ثراء نهديها.

تذكّرتُ أنّ فستانها الآخر كان مفصلاً على نفس هذا الأسلوب ذي الأهداف المحدّدة؛ وكانت تضع ساقاً على ساق.

كنتُ أنتظر أن تبدأ الكلام، وكانت تدخّن بهدوء مفتعل وتنفخ الدخّان من فمها بقوّة تلفت النّظر. لاحظتُ ارتجافة بسيطة جداً في بنصر يدها الممسكة بالسيكارة وكانت متزيّنة زينة خفية غير مرئية تماماً، وكنتُ أحبّ ذلك.

جلب لي النّادل كأس الويسكي فتناولته وجرعتُ جرعة صغيرة منه فسمعتها تضحك بخفّة فرفعتُ نظري إليها. كانت لاتزال منفرجة الشّفتين عن ابتسامة سعيدة دون شروط:

ـ دعنا نتساعد كي لا نحرج أكثر مما يجب. أترك مشروبك الثمين هذا جانباً وسأطفئ سيكارتي حالاً.

أيّدتها في ذلك وتراجعتُ قليلاً في جلستي. أطفأتْ سيكارتها ثمّ أنزلت ساقها وطرف فستانها:

ـ أستاذ هاشم، أودّ فقط أن أرجوك منذ البداية أن نكون.. أن نكون كما نحن حقيقةً، وألاّ نخرج عن طبيعتنا المهذّبة المعتادة. هنالك بعض الأمور الحسّاسة الّتي أشعر بضيق من مجرّد التفكير بأن عليَّ أن أبحثها معك. كلاّ، انتظر لحظة. أنا مثلك، أحترم الآخرين وأحترم حقّهم في أن يعانوا من مشكلاتهم الخاصّة بمفردهم دون تدخّل من أحد. أنا معك، لاشكّ في أنّي معك في هذا. إنّما..

ـ تعجبني كثيراً طريقتك هذه في الكلام. استمرّي أرجوك.

تطلّعتْ بشكّ إليَّ:

ـ حسناً. لنقل إنّها بادرة أولى جيّدة.

ـ نعم. لنقل ذلك.

نظرات شكّ أخرى:

ـ لا أحبُّ أن أفكّر بأنّك تحاول أن تسخر؛ سيكون ذلك أمراً مؤسفاً حقاً.

ـ ليست لديَّ أيّة نيّة للسخرية. تأكّدي.

ـ لن تهمّني، على كلّ حال، نيّاتك. اسمع. أنت تعرف بأنّ الموضوع معقد وشائك، ولا يحتاج لتدخلك لكي يكون أكثر تعقيداً.

ثمّ أطلقت تنهدة طويلة ودارت ببصرها في أطراف القاعة. كانت السّاعة تقترب من الثّامنة والنّصف مساءً، ولم يكن لديَّ ما أعمله طوال اللّيل. سمعتها:

ـ أنت يا هاشم، هل أردتَ حقاً أن تتزوج ابنة عمّي آمال، أم لا؟ أجبني من فضلك.

هززت رأسي بالإيجاب.

ـ وأنت تقدمتَ لخطبتها حسب الأصول. كنتما قد تعرفتما أحدكما على الآخر بصورة كافية، فوافق أهلها بعد أن سألوها رأيها في هذه الزّيجة فلم تمانع. وتمّت الخطبة الرسمية وبدأت مرحلة التهيؤ للزواج؛ ولم تبخل عليها بشيء مما أرادته ولا بما قدّمتَ من هدايا ثمينة. ونفّذتَ ما تعهّدتَ به من شراء الأثاث الّذي اختارته آمال بنفسها وشيّدتَ لكما طابقاً منفصلاً في بيتكم بالحارثية حسب الاتفاق بينكما. ثمّ جرى تحديد موعد العقد والزواج والسّفر إلى الخارج لقضاء شهر العسل، على أن يتمّ كلّ ذلك خلال أسبوع واحد. أأضجرك بحديثي هذا المطوّل بعض الشيء؟

ـ أبداً. اسمحي لي فقط أن أشرب من كأسي.

سكنتْ لحظة:

ـ إذا أردت. بالطبع. وجرتْ مراسيم عقد الزّواج، ثمّ بعدها

بأسبوع كانت هي حفلة الزّواج والزّفاف والسّفر؛ في يوم واحد.. أعني في ليلة واحدة مشهودة لابدّ أنّك تتذكّرها.

ـ أبداً، أعني..

ـ أنت على حق، لأنّك لم تكن حاضراً.

كنتُ هادئاً في الواقع، بل يمكنني القول بأنّي كنتُ في غاية الهدوء والاستقرار؛ ولم يكن يقلقني إلاّ فكرة أن يتكرّر الموقف معها مثلما حدث في قاعة العرض، فتنساق مع أصداء كلماتها وتثور أعصابها لغير سبب.

ـ يهمّني أن تعلم، يا أستاذ هاشم، بأنّي أبعدتُ عن ذهني الكثير من الأسئلة الّتي كانت تشغلني، أنا وبقية أفراد العائلة لاعتقادي أنّها ستكون بلا جدوى. لذلك لن أسألك أين كنتَ تلك اللّيلة ولا لماذا لم تفعل كذا وكذا؛ بل خطر لي سؤال أو سؤالان.. إذا كنتَ قد تجشّمتَ كلّ هذا العناء في الوقت والجهد والمادّة من أجل الزّواج من آمال، فماذا تبدّل في اللّحظة الأخيرة؟ وهل كان ذلك بناءً على خطّة مدبّرة من قبل؟ ثمّ إنّي، بعد أن فكّرتُ ملياً في الموضوع، طرحتُ جانباً هذه الأسئلة أيضاً.. لا جدوى.

مدّتْ يدها إلى حقيبتها اليدوية وأخرجتْ علبة السكاير. كانت في عينيها السّوداوين الواسعتين نظرات مخضلّة بالحزن والحسرة والاتهام.

ـ تلك اللّيلة المصيبة، لم أرَ، في حياتي، أناساً سعداء بهذه الدرجة ينحدرون بذهول إلى أعمق مستويات الشّقاء. كأنّهم تلقّوا أحكاماً بالإعدام. وكانت الكارثة من القوّة بحيث فقدوا كلّ حسّ بالمنطق ولم يعودوا يفكّرون إلاّ بالبكاء وبإخفاء الفضيحة. ولو لم نبذل جهدنا، أنا وعمّي، لإقناعهم بالاحتفاظ بالكرامة والتصرّف كما

يجب، لأنّ الأمر قد يكون خطأً في خطأ، لما دريتُ ما كان سيجري من مآسٍ ومناحات. أنا أحكي لك هذا لأنّك يجب أن تعلم بما حدث إن لم تَعلم حتّى الآن.

أخرجتْ قداحة ذهبية صغيرة فأشعلتْ بحركة منها سيكارتها ثمّ أعادتها إلى الحقيبة:

ـ ثمّ إنّك تعرف بقيّة القصّة المستمرّة منذ سنة ونصف؛ فأنت شخص غير مرئيّ، تخفي نفسك بقصد وبغير قصد؛ وحينما تواجه بمن يطلب منك موقفاً سليماً تتذرّع بمنحك مهلة للتفكير والتأمّل؛ أو تتظاهر بأنّك ستفعل كلّ ما تريد العائلة وأنّك مستعد لكلّ شيء. كلّ هذا...

توقّفتْ وأشارتْ إلى النّادل فسارع إليها فطلبتْ فنجان قهوة بدون سكّر ثمّ نظرتْ إليَّ متسائلة فأشرتُ بالنفي شاكراً عرضها الصامت.

ـ كلّ هذا والأمر يتّجه إلى أن يكون فضيحة والفتاة المسكينة تكاد تنسحق نفسياً تحت ضغط هذه الظروف الشّاذة، والنّاس والأقرباء يلحّون في السؤال والتشكيك والاستنتاج؛ والشّباب، تعرف ذلك بالتأكيد، في دوّامة يدورون حولها يريدون أن يفهموا شيئاً محدّداً وما إذا كان بالإمكان.. تعرف.. أن يتقدّموا إليها.. إلخ.. إلخ. وأنت يا أستاذ هاشم كأنّك في عالم آخر، لا تتصوّر وضعنا كما يبدو ولا يهمّك أن تعرف حقيقة ما نواجه. هل تجد في هذا أيّ عدل أو إنسانية أو.. أو تحضّر؟ هل تعلم أنّ رفض عمّي دكتور راغب، هو السّبب الوحيد لعدم لجوء العائلة إلى المحكمة؟ قل لي الآن أرجوك، هل لديك فائدة شخصية من كلّ هذه الفوضى؟

كنتُ أكملتُ شرب قدح الويسكي على معدة فارغة، فسرى فيَّ دفءٌ غريب وحيوية وبعض الجرأة؛ وكنتُ أشتهي تدخين إحدى

سكائرها. لم تأتني بجديد كما توقّعت، لكن أملي لم يخب فيها، لأنّي لم أكن آمل شيئاً من هذه الفتاة الّتي أحسّ أنّها تحاول أن تكون بارعة، وأنّها تخفي، لا شيئاً واحداً، بل أشياء عديدة.

تظاهرتُ بأنّي أفكّر في سؤالها الّذي وجّهته إليَّ؛ ثمّ رفعتُ إليها نظري:

ـ كلاّ.

ـ أنت تهزأ مرّة أخرى؛ أو على الأقل، لا تأخذ الأمر مأخذ الجد.

ـ كلاّ، بالتأكيد.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني بأنّي ماأزال لا أعلم هل آخذه جدّياً أم لا!

ـ أنت تهينني بكلامك هذا، هل تدري؟

ضيّقت من عينيها وهي تحدّ النّظر في وجهي. بدتْ لي من بعض الوجوه ذات هيئة مغرية.

ـ لا أقصد هذا البتة.

ـ بل إنّك تهين العائلة كلّها.

ـ أرجو المعذرة، لعلّكِ لم تفهميني جيّداً. أنا لا يمكن أن أقصد مثل هذه الأمور أبداً.

رأيتها تتألّم بصورة لم أتوقّعها. طفح على وجهها، على كامل ملامحها الملوّنة البراقة، ما يشبه الانطفاء، ما يشبه التخاذل المؤسي. سارعت أكلّمها:

ـ لا تفهميني من الجهة الخاطئة، أرجوك، دكتورة سلمى. أنا أحترمكم جميعاً كأنكم عائلتي نفسها. اصبري قليلاً معي.

حنتْ رأسها وأخذت تنظر إلى يديها في حجرها وإلى السيكارة على المنفضة وقدح القهوة الّذي جلبه النّادل قبل ثوانٍ ولم تمسسه

وإلى السجّادة تحت المائدة. خيّل إليَّ كأن هاجساً يتملّكها في أن تختفي من أمامي حالاً؛ وكان ذلك شيئاً محزناً:

ـ أكرّر اعتذاري، دكتورة سلمى، وأرجو أن تصغي إليَّ جيداً، لأنّي أشعر أن بإمكاني أن أحدّثكِ كما لم أحدّث شخصاً آخر من قبل. لقد ذكرتِ في حديثك باختصار، أهمّ الأمور الّتي يمكن اعتبارها، بشكل من الأشكال، أساس ما حدث، الأساس الواقعيّ، الأساس التاريخي؛ ولن أجادل في مسألة صحّتها. إنّما الوضع معي هو أنّ هناك أموراً أخرى لا توضع في الميزان عادة، أمور يمكن أن نعدّها خفيّة أو لا تُدرك بسهولة؛ ولكنها تعمل عملها في العمق... في العمق العميق. وهي حين تعمل، تعمل بسرعة خاطفة وبدون إنذار. تضرب ضربتها القاضية وتمضي تاركة لكِ ولي أن نحاول الفهم إن استطعنا ذلك. وأنا.. أنا يا دكتورة سلمى، لا أدري إن كنتُ وقعتُ أم لا، تحت وطأة أحد هذه الأمور؛ إنّما.. إنّما..

لم أكن أتلعثم، إلاَّ أنّ الكلمات أخذت تفقد، فجأةً، دلالاتها العادية؛ وبدل أن أوضح لها فكرتي أكثر، بقيتُ أردّد جملاً ومقاطع لا تضيف شيئاً لما قلت. كانت تتطلّع إليَّ، بغاية الجدّ، ممسكة سيكارة لا أدري متى أخرجتها وأشعلتها، واضعة ساقاً على ساق. لم تكن لاهية عني، بل متحفزة وشبه ناقمة.

ـ يؤسفني ألاَّ أستطيع توضيح فكرتي كما يجب؛ لكنّ المسألة معي يا دكتورة سلمى، هي أنّي متأكّد بأنّ الإرادة الإنسانية تتعطّل أحياناً بل تتوقّف توقّفاً تاماً؛ وهذه هي الخطوة الّتي تسبق قيام الأمور الأخرى بإكمال توجيه ضربتها المفاجئة. بعد ذلك.. ويجب أن نقول بعد ذلك، لأنّ كلّ شيء يبدأ بعد.. بعد ضربة الأمور الأخرى الّتي أحدّثك عنها. كلّ شيء؛ فأنت متروك، متروك تماماً، ووراءك

ما يجب أن تفسره لنفسك أوّلاً وللناس إن أمكنك ذلك؛ أمّا أمامك، أمامك بالطبع كلّ الآفاق مفتوحة، ويجب أن تتدبّر ذلك.. يا إلّهي!

لم أُرد أن أضع إحدى راحتيَّ على وجهي، اللّعنة. لم أرد ذلك أبداً، ولكني فعلته. هكذا؛ كأنّي سكران أو هائج عاطفياً أو يائس من الدّنيا.

وكانت لي بالمرصاد؛ تكلّمتْ بصوت بارد صافٍ رزين:

ـ أنا آسفة أيضاً يا أستاذ هاشم، فلم أفهم من حديثك شيئاً؛ ويبدو أنّك، في هذه الحالة الخاصّة جداً، لا تقدر أن تتكلّم بشكل واضح مفهوم. أنا لا وقت طويلاً لديَّ أقضيه معك أفسّر وأفسّر. هنالك نقطة مهمّة سألتك عنها بصورة غير مباشرة، وسأسألك عنها بصورة مباشرة وصريحة.. هل أنت على استعداد للتفاهم من أجل إتمام الطلاق أم لا؟ أجبني، من فضلك، على مدى اهتمامك بهذه القضية.

ـ إنّها في الدّرجة الثّانية من تفكيري. لقد حاولتُ أن أشرح لك.. موقفي الأساسي، موقفي الّذي حصل، أعني.. ما حصل لي. أتفهمين؟

ـ كـلّا؛ ولا أريـد أن أفهـم، إذا سمحـت. لا تقلـق نفسـك كثيـراً لتفسير الأمور الأخرى لي. إنّها لا تهمّني. مطلقاً. إنّما يجب أن أقول لك بوضوح تام شيئاً خطيراً لم أتطرّق إليه من قبل. منذ فترة جاء لمقابلة عمّي شخص كان قد رأى آمال صدفةً وسأل عنها وعن العائلة؛ ويبدو أنّه عرف كلّ شيء عمّا حدث؛ ثمّ أبدى بغموض رغبته بطلب يدها بعد أن تُحلّ المشاكل العالقة.

كنتُ متوتّراً، مشدود العضلات.

ـ هذه شؤون تحصل على الدّوام ولكلّ النّاس؛ ولعلّك تقول في

دخيلة نفسك. . فليذهب إلى الجحيم، ما لي وله! وأنا معك في هذا.

ثمّ صمتت:

ـ النّاحية الحسّاسة في الموضوع هي أنّ هذا الشخص يملك نفوذاً من نوع ما، نفوذاً يمكن اعتباره واسعاً؛ وهو في موقعه، يستطيع أن يقوم بأعمال. . بأعمال في غير مصلحتك. أنا آسفة، هذا هو الواقع، الأساس التاريخي كما سمّيته. إلاَّ أنّنا، هو ونحن معه، لانزال على قناعتنا بأنّ المشاكل ستُحلّ بالتراضي والاتفاق.

ـ أنتِ تهدّدينني، يا دكتورة سلمى.

بهدوء شديد كنتُ أتكلّم. اضطربتْ قليلاً:

ـ أبداً. أبداً.

ـ أنتِ تملكين العجرفة اللاّزمة لتهدّيدي، أنتِ. .

ـ لستُ متعجرفة. أنا أنقل إليك ما قد يفيدك. إنّك بحاجة لمن يفتح لك عينيك؛ لأنّك إنسان مدلّل، تعتقد أنّ على البشر جميعاً أن يسمعوا آراءك وأوهامك وأن يطيعوك.

ـ لم يدلّلني أحد.

ـ بل أنت مدلّل ومفسود فوق ذلك.

أشرتُ للنادل أن يأتي بالحساب؛ لم تعد هنالك فائدة من نقاش على هذا المستوى. رأتْ ذلك فأنزلتْ، مرّة أخرى، نظرها إلى الأرض كأنّها تصلّي:

ـ أرجوك. لا تنصرف. لم أقصد تهديدك. تأكّد، تأكّد.

دفعتُ الحساب. همستُ:

ـ ظننتكِ قد تفهمين. لا أدري لماذا تواتيني هذه الظنون عن بعض الأشخاص. . عنكِ مثلاً. . ثمّ أُصدم.

ـ لقد قصدتُ مصلحتك في كلّ ما قلته. أنت لا تعرف نوع الأشخاص الّذين أتكلّم عنهم. إنّي أرثي لك وأشفق عليك مما في مقدرتهم عمله. دعنا، أنت وأنا، نحلّ المشاكل وننتهي. لا تظن بي سوءاً.

قمتُ. كنتُ حزيناً جداً، معتصر الفؤاد:

ـ كلاّ، لن أظنّ بك السّوء، لحسن الحظّ. ولكن، فكّري فيما حدّثتك عنه بإخلاص. كانت أموراً أصيلة، لاشكّ في ذلك.

ثمّ تركتها ومضيتُ مسرع الخطى.

أراحني الهواء البارد والمطر الخفيف الّذي تساقط على وجهي وشعري. جلستُ داخل السيّارة أمسح قطرات الماء وأفكّر في ما إذا كان صحيحاً أن أتركها هكذا، وهي الشابّة، تعود بمفردها في ساعة متأخّرة نسبياً من اللّيل؟

لعلّها اعتمدتْ على تفاهمنا تفاهماً كاملاً أقوم بعده بإيصالها إلى دار زوجها. أية أفكار فجّة! هي متزوّجة أيضاً. هذا ما أعرفه جيّداً. طبيب مثلها يعمل في أحد المستشفيات. قالوا إنّه خامل، من عائلة وضيعة.

كانت تراوغ وتناور؛ أدرتُ مفتاح المحرك، من أجل أن تصل إلى غايتها بالطبع. كلّ البشر يصلون إلى غايات؛ تلك الّتي اختاروها بأنفسهم أحياناً، وتلك الّتي تسقط عليهم كاللّعنة أغلب الأحيان. اشتدّ سقوط المطر فجأة. كانت الشوارع خالية تتلامع، وكنتُ دائخاً بعض الشيء وجائعاً ومتعباً. لم أرد أن أذهب لتناول الطّعام في ذلك المطعم المترف حيث الكلّ يعرفون أنصاف الحقائق. وجدتُ في نفسي ميلاً لسماع الموسيقى في غرفة دافئة، بمفردي. كانت مقابلة

مختلفة هذه المرّة. لا يجب أن أنكر أنّها تكلمتْ بإتقان ووضوح، وأنّي أنا الّذي لم يستطع أن يثير اهتمامها أو افتتانها بما جرّبه وعاناه. ألم تفهم، حقيقة، أم أنّها تتغابى؟ ولِمَ ذلك؟ لبلوغ الهدف؟ ممكن.

كانت مصابيح الباب الخارجية مضاءة، ولم أتأخر إلاَّ دقائق في فتح الباب وإدخال السيّارة ثم إطفاء الأنوار. تذكّرت أقوالها عن الأثاث والبناء والهدايا. أشعلتُ المدفأة الكهربائية في الصالة حيث أقيم ونزعتُ عنّي بعض ثيابي ثمّ وضعتُ على كتفيَّ مبذلاً خفيفاً ونزلتُ إلى المطبخ. لم أجد أحداً ولا سمعتُ نأمة أو صوتاً يدلّ على أنّهما مستيقظان. حضَّرت عشاءً خفيفاً وضعته في صينية ثمّ مضيتُ به إلى أعلى. جلستُ في الكرسي الوثير أستمع إلى الموسيقى وآكل بهدوء.

لم تكن، تلك الفتاة الغريبة الأطوار، تأنس إليَّ حين كنا نلتقي ضمن الإطار العائلي المعتاد؛ ولم تسنح لي الفرصة لأعلم عنها أنّها تتحدّث بهذه الطريقة. لفت اهتمامي يوماً أن أسمع آمال تتكلّم عنها بغير ودّ كبير. روت أشياء عن أمّها المطلّقة منذ عشرين عاماً وعن نشأتها مع أبيها ودراستها ونجاحها وزواجها أخيراً من هذا الطبيب. كلّ شيء متقن بشكل يبعث على الريبة. ولكن.. ولكن؛ أهذا هو كلّ شيء؟

وبعد أن أنهيتُ طعامي ووضعتُ الصينية جانباً وقمتُ لأبدّل الأسطوانة، كنتُ لاأزال، داخلياً، ضمن سؤالي ذاك.. أهذا هو كل شيء؟

اخترت «لَيْلِيّات» شوبان، الّتي صارت ليلياتي هذه الأيام، ووقفتُ جنب الحاكي أصغي إلى قطرات البيانو الأولى تتساقط بنسق عجيب

يرعش القلب؛ فتقاربتْ حينذاك أمامي، في الفضاء، صورتان من صور هذا اليوم العديدة. انبثقتْ صورة خالي رؤوف من جهة، على حين غرّة، وهو في وقفته أمام النّهر يختال فخراً أجوف مضحكاً ولكنه مؤثر وشجي؛ وتبعتها صورة سلمى جالسةً تنظر بسهوم وحنوّ إلى السّجادة تحت قدميها. كانا متواجهين، يتكلمان بلغة واحدة ذات دلالات مختلفة؛ وكنتُ هدفهما الوحيد، خفيةً وظهوراً. لقد جمعتْ بينهما أمورٌ غير مألوفة؛ أهي، أيضاً، تلك الأمور الأخرى الّتي لا يُحسب لها حساب والّتي حدَّثتُ عنها، كأنّما بوحي، الطّبيبة المفتونة بحل مشاكل لا تُحلّ؟

كان خالي رؤوف يشير، بغير كثير من الغموض، إلى طريقة ما وإلى شخص ما، أُخذ مأخذاً خطأً؛ وكانت هي تقرع الطبول مثيرة ضجّة لا داعي لها، لتبعد الأبصار عن الأمر الّذي يهمّها قبل كلّ شيء.

كم كانت حكاية خالي مبهجة رغم روحها المأساوية؛ وكم أغضبها أن أعلن لها بأن ما تعتبره في غاية الأهمية هو في نظري بالدرجة الثّانية منها! ذلك أنّها لا تدرك بأنّ ما يُعمل أحياناً عن غير تصميم ولا منطق معلوم، هو الّذي يجب أن نجهد لفهمه وأن نتساوق معيشياً مع معطياته الكبرى. هي لا تريد أن تسألني أين كنتُ تلك اللّيلة؛ وخالي، مثلها، يبتعد عن إزعاجي؛ وأنا، بإصرار، لا أريد أن أسعى إلى ترخيص أوقات ذاتي السّامية المتفتّحة على الحياة وعلى العدم. كلّهم إذن، في ثالوث غير مقدّس، يبتعدون.. يبتعدون دون جدوى؛ عن بعضهم، بالتأكيد؛ وعن منارتهم المضيئة، ربّما.

انتهت أسطوانة «اللّيْلِيّات» فلم أعاودها. حملتُ الصينية ونزلتُ

إلى المطبخ. كنتُ ساهماً. لم أجد أحداً. خطر لي أن أبحث عنهما، لكني تراجعت. لا شيء كثيراً لديَّ أقوله لهما، ولا أظنّ أنّ شؤونهما تغيّرت منذ ليلة أمس.

عدتُ إلى غرفتي. تملكتني رغبة لرسم خريطة بيت بسيط، صحّي وشاعريّ؛ بيت يمنحك الأمان والمحبّة، ويسترك وينفتح معك على العالم إذا أردت. أخطّطه ببضع ضربات من القلم ثمّ أضع عليه بعد ذلك لمساتي الشخصية. إلاَّ أنّي كنتُ متعباً هذه اللّيلة وبي حاجة ليس للنوم حسب بل للغياب عن العالم. دخلتُ استحمّ وأنا أشعر ببقعة سوداء في ناحية ما من سماء نفسي، وأنهيتُ استحمامي والبقعة لاتزال موجودة بخفاء. ثمّ أطفأتُ المدفأة وأعدتُ أسطوانة «اللّيْلِيّات» العزيزة إلى مكانها بعناية وقصدتُ الفراش. استرخيتُ متمدّداً على السرير وبدأتُ أوحي لنفسي بالراحة والانسجام مع الذات وبالنوم العميق. كنتُ مرهقاً جداً، فاستسلمتُ لرفاهية النّوم بسرعة؛ وقبيل أن تأخذني اللّجة السّاحرة، كنتُ على يقين بأنّ البقعة السّوداء لا تخفي نفسها كما يجب.

صباحاً، ومع طول انكبابي على العمل دون انقطاع وبتركيز شديد، فإنّ الوخز في الجنب لم يفارقني. كانت الأفكار الهندسيّة، صغيرها وكبيرها، تأتيني بسهولة واحدة إثر أخرى؛ ولم أمنع نفسي من رسم كلّ ما ورد إلى ذهني ذلك الصباح؛ إلاَّ أنّي لم أُعجب إلاَّ بجزء يسير منه. أعجبني بالدرجة الأولى اندفاعي وحماسي وسهولة التخطيط عندي وتنوّع الأفكار. هذه ساعات مباركة حقاً من العمل الخصب، لا يتسنّى لكلّ إنسان استحضارها وقتما يشاء.

وكانت السّاعة قد اقتربت من منتصف النّهار حينما شعرتُ بحاجة لمنبّه قويّ، فنجان قهوة؛ أحضره لي المستخدم بسرعة فاستنشقت

الرّائحة النفّاذة عدّة مرّات وأنا أقف أمام النّافذة. كانت السّماء زرقاء زرقاء، مجلوّة منوّرة بشمس زاهية؛ وكان طعم القهوة مرّاً مرارة مستحبّة، وكنتُ أرتشف من القدح ببطء مغمض العينين حينما تكشفتْ البقعة السوداء المنزوية منذ ليلة أمس، عن هاجس مقلق. لقد حملتْ إليَّ تهديداً غير مبطن بالاعتداء عليَّ إذا دعت الحاجة لذلك. في هذه النّقطة، لم تناور ولا تحاشَتِ الوضوح. قالتها بصراحة وعنجهية؛ ولعلّها كانت سعيدة بما تقول؛ وأنا لم آخذ أيَّ شيء قالته مأخذاً جدّياً، كأنّي أريد الانتقام منها. يا للغباء! مع أنّها، من يدري، أعلم النّاس بنوع البشر الّذين كانت تتحدّث عنهم؛ ولذلك قالت ـ أقالت حقاً؟ ـ إنّها تشفق عليَّ ممّا قد ألاقي منهم! كانت تتكلّم بمرارة مدفونة بإحكام.

كانت تشفق عليَّ؛ أكانت تشفق حقاً عليَّ؟ ذلك أمر في غاية الغرابة، لأنّه لا يجب أن يكون؛ لا يمكن أن يكون، إلاَّ إذا أدخلناه ضمن الأمور الأخرى الّتي حدّثتها عنها.

أكملتُ شرب قهوتي أمام النّافذة، ولمّا عدتُ أريد الاستمرار في العمل، تعذّر ذلك عليَّ. تبلّدتُ تماماً وانسدتْ أبواب الفكر بإحكام. بقيتُ جالساً أمام المكتب المغطّى بالأوراق، غير قادر على الاستسلام وغير قادر على إلهاء نفسي بعمل آخر. يبدو لي أنّ أموراً كثيرة أخذت تتراكم في حياتي، داعية للتمحيص وإعادة النّظر. ومع استمرار هذه الحالة، يتحوّل التراكم إلى عملية إغراق حقيقي، ثمّ تصير حياة الإنسان مثل قشّة فوق نهر هائج؛ لا وجهة معلومة لها ولا هوية ولا أية مزيّة يمكن الفخر بها. لذلك يجب التوقّف بحزم أحياناً، ولِمَ أقول أحياناً؟ القول الدّقيق هو.. في حين معيّن يجب التوقّف عن الحياة بشكل ما وإجراء عملية مسح وجرد وتقويم،

وليحصل ما يحصل بعد ذلك. المهمّ أنّ الحين إذ تدقّ ساعته فلابدّ من التوقّف. وأنا.. الآن.. مهدّد ومطارد ووحيد ومطلوب لعمل شيء؛ ولأنّي بهذه الصّفات الفريدة حقاً، فأنا لستُ قشّةً إذن! فلا أحد يزعج نفسه، هذه الأيّام على الأخص، بتوجيه تهديد إلى قشّة! ولكن، من جهة ثانية، هناك من يشفق عليها ومن يجد أنّ من الظلم أن تُسحق أو أن يلحقها الأذى! وبعيداً عن كلّ هذا الضجيج من التهديدات والإشفاق والعواطف الأخرى، يخيّل إليَّ أنّي بحاجة لمشورة عادلة أثق فيها؛ فقد يحدث أنّي لا أفهم عصري ولا الدّنيا الّتي انحشرت فيها ولا حتّى البشر؛ وأنّ موقفي الآتي لا يمكن أن يستقيم طويلاً؛ فهو، كيفما قلبته، بقعة دكناء في اللّوحة الزاهية لهذا المجتمع، وهو يوشك أن يتحوّل لغير سبب مفهوم، إلى اتهام سلبيّ وإدانة غير مستساغة لمؤسساتنا المدنيّة ذات الاحترام. أأنا، آخر الأمر إذن، في منطقة خطر جديّ؟ دقّ جرس الهاتف، وكان صوت المدير لطيفاً يسأل بأدب عن الصحّة والحال والعمل فعرضتُ عليه أن أُريه بعض منجزات نشاطي في هذا الصباح؛ ثمّ حملتُ كومة الأوراق الملفوفة، شبه سعيد بانشغالي هذا ومضيتُ ألقاه.

خلال تناولي طعام الغداء على مائدة منعزلة من مطعم نادي العلوية، عاد لذهني سؤال وجّهه إليَّ السيّد المدير بدون أية مناسبة.. أليس لديك أصدقاء؟

كنتُ أنهيتُ عرض الخرائط والتصاميم عليه وتلقّيتُ بحبور إطراءه المنتظر واقتراحاته الأبوية وطلباته الرسمية العاجلة، ثمّ، لحظات، والسؤال الواخز.. أليس لديك أصدقاء؟ قالها بلهجة يتقنها وتعني بالضبط.. ألديك أصدقاء؟ في تلك اللّحظة تذكّرتُ، لحسن الحظّ،

ما سبق لي أن فكّرتُ فيه عن القشّة والنّهر الهائج والتهديد.. إلخ الأمر الّذي منحني برودةً ولا برد الثّلوج، فأجبته:

ـ نعم، بالطبع.

وكنتُ، في الحقيقة، أفكّر بخالي العزيز رؤوف. إلاّ أنّ ما لم يقله السيّد المدير هذا، كان أكثر إزعاجاً وأشدّ عملاً في النّفس؛ ولذلك شعرتُ بعد خروجي من مكتبه بأنّ فكرتي عمّا لم يحدث ومدى تأثيره في الحياة ليست فكرة صحيحة حسب بل يتوجب مني، لحظتئذٍ، معايشتها والعمل بمنطقها واستمداد القوّة منها.

وهكذا، كنتُ أتناول طعامي بسكينة وهدوء طبيعيّيْن، غير متجنّب النّظرات ذات المعنى المنبعثة من الزّوايا، بل باحثاً عنها، مواجهاً لها، مصطدماً بها؛ وكان الجوّ مبهجاً مشرقاً في هذه الظهيرة الجميلة المشمسة من أوائل شهر شباط. لن ألبث أن أنتهي من عملية إعادة البناء الذّاتيّ الّتي صممتُ أن أبدأ بها على عجل. بعدها، سأكون قادراً على المقارعة إن حصلت وعلى الإجابة على الأسئلة المحظورة.

أسئلة محظورة بالفعل؛ فالسؤال عندهم يُجاب عنه بجواب واحد يريدونه هم، لا أنت. ولذلك فهي أسئلة محظورة؛ وليس بذي أهمية أن تكون التسمية خطأ. سأقول لهم يوماً ما.. هذا هو جوابي.

كانت العودة إلى المكتب للعمل مباشرة بعد الغداء، جواباً من نوع خاص للسيد المدير على أسئلته الطفيلية. ولشدّ ما سرّني أن تستجيب طاقاتي البدنيّة لهذا التحدّي، فتسمح لي بإكمال ما بدأته صباحاً من عمل لرسم خريطة البيت العراقيّ المتواضع الجميل. سيكون بيتي أنا، لا يشاركني فيه أحد. أفقتُ من استغراقي في العمل

على رنين الهاتف. كانت السّاعة تقارب السّابعة والنّصف والظلام يلفّ من حولي العالم. لم أكترث بمن يمكن أن يكون وبدأتُ ألملم أوراقي ومخططاتي وأرتبها على المكتب والرنين مستمرّ. فتحتُ النّافذة وأطفأتُ الأضواء ثمّ خرجت.. والرّنين مستمرّ.

لا يحتاج الإنسان، في وقت معين، أن يفكّر بأيّ شيء ليشعر أنّه مليء وأنّه متعب ولابدّ له من الراحة. استنشقتُ الهواء المعطّر هينهات وأنا أقف أمام مقرّ الشركة. كانت السيارة على مبعدة، رابضة في الدّكنة. خُيّل إليَّ أنّ شخصاً ما كان قربها ثمّ مضى.

فتحتُ الباب وجلست. ما هو الأمر غير السارّ الّذي جعل السيد المدير يكتئب قليلاً لأنّي أجبته بالإيجاب؟ نعم، لدي أصدقاء. بالطبع. أكان يتوقّع غير هذا الجواب المفحم الواضح؟

إذ، أنْ تعتقد أنّك تعرف شخصاً، شخصاً واحداً مفرداً، قد يموت بدلك صداقةً، فأنت إذن ذو حظّ عظيم. في أحد أعياد ميلادي الّتي كانت أمّي سناء تثير ضجّة حولها قبل حدوثها بأسابيع، سألتني أن أدعو كافّة أصدقائي في الصفّ لحفلة ذلك اليوم الفريد، فصفّقتُ طرباً لهذا الاقتراح وقبّلتها عديد القبل، غير مجيب على سؤالها الملحاح عن عدد هؤلاء الأصدقاء بالتقريب. لم أكن، في سنتي الطفولية السادسة، أقصد ألاّ أجيب، ولكني كنت مرتبكاً غير عارف بالحقائق. وفي المساء المشهود حضر محمود محمّد علي في السّاعة المحددة بالضبط فطلبتُ من أمّي أن نبدأ الاحتفال حالاً، فرأيتُ على وجهها المضطرب سيماء الانخذال والتساؤل، فظننتُ أنّها لم تعجب بصديقي ذاك الأعرج ذي الملابس الرثّة. بكيتُ آنذاك، فبدا لها أنّي بكيتُ لسبب آخر فاحتضنتني كعادتها وأسرَّتْ لي هامسة بأنّ محمود

محمّد علي هو أفضل الأصدقاء لأنّه جاء يفرح معنا ولا حاجة للكثيرين لكي يكون الفرح عظيماً.

يا لأعياد الميلاد تلك، كم أتعبتنا دون جدوى! ولم نستمرّ في ذلك التقليد بعد وفاة أمّي سناء، وكرهتُ أن أتذكّر يوم مولدي سنة بعد أخرى. كنتُ أصخب معها وأفتعل ضجيجاً لا مبرّر له، بحيث أثير حنق أبي. وما إن يثور أبي ويبدأ بالصراخ حتّى أشعر بأنّنا بلغنا الهدف، وعلينا أن نرتاح بعد ذلك!

فلما رحلتْ عني أمّي سناء وتركتني وحيداً أعزل أمامه، أحسستُ أنّها حنثتْ بوعدها أن تبقى بجانبي إلى الأبد. تلك شؤون غامضة، لا يبدو أنّ لها علاقة بالحقائق، ولكنها تظهر مع ذلك وكأنّها تتدخّل في مسيرة الكون وفي ميلاد البشر وفنائهم.

مررتُ سريعاً بمطعم «فاروق» ثمّ انحرفت نحو اليسار قاصداً بيتنا في الحارثية. جاوزت السّاعة الثّامنة بقليل؛ وهو الوقت الّذي تدهش فيه عمّة قادرية عادة إذ تراني أمامها في البيت. رجوتها أن تطعمني ممّا لديها، فابتسمتْ راضية وسألتني عن خالي رؤوف وعمّا إذا استطاع أن يتصل بي في المكتب. قالت إنّه خابر مساءً يرجو أن يراني أو يكلّمني على الأقل، فأعطته رقم هاتف الشركة. أسفتُ لذلك واستوضحتُ منها عمّا أراد فلم تعرف. كنتُ متعباً. اضطررتُ أن أسألها عن والدي فهزّتْ رأسها وهي واقفة بجوار الطبّاخ، فطلبتُ منها ألاّ تعمل مثل هذه الإشارات المبهمة وأن تتكلم كما يتكلم البشر. أدارت لي وجهاً هضيماً لا عواطف فيه:

ـ سبحان الله!

ثمّ انغمرت ببخار أبيض لم أعرف مصدره. سمعتها:

ـ إنّ الله سبحانه وتعالى كريم غفور رحيم يا ولدي. يقول والدك

إنّه سمع من مصدر ثقة بأنّ اسمه لايزال في القائمة، ولعلّه يترفّع عن قريب.

ـ وتنحل أزمتنا، إنّ شاء الله؟

ـ نعم. قل إن شاء الله. هذا والدك، وخيره كلّه لك. قل إن شاء الله.

ـ قلتها قبلك؛ ألم أفعل؟ كفى نكداً. سأصعد لأبدّل ملابسي وأنزل.

ـ لا تتأخّر. كلّ شيء حاضر.

لم أرد أن أرتاح لهذا الخبر التّافه الّذي قد يكون، في النهاية، إشاعة لا أساس حقيقياً لها؛ ولا كنتُ أريد أن أنزعج للسبب نفسه. ما كان يقلقني، وأنا تحت ماء الدّوش الفاتر، هو هذه الاستجابات الفورية اللاّعقلية؛ إنّها أمور لا يتدخّل فيها العمل مطلقاً. كأنّها أرض حرام لا سبيل ولا قيمة للمنطق فيها. تسمع، على سبيل المثال، خبراً ما أشدّ تفاهته وسوقيّته وخفّته؛ وقبل أن يُتاح الوقت لذهنك الرصين كي يزن ويقوّم الخبر ومنطوقه، تجد شيئاً غريباً يتوثّب ويتراقص هنا وهناك في نفسك وفي الجوّ من حولك، معلناً الفرحة والرضا والقبول والاستبشار! ويتبقى بعد ذلك على العقل والرّزانة وإمعان الفكر أن تنحني بخشوع وتصمت. ما هذا، إذن؟

ثمّ إنّ خاطراً عجيباً جداً هاجمني وأنا ألفُّ جسمي بالمنشفة وأجلس على الكرسي الوثير. ألم يكن ما حدث لي تلك اللّيلة هو من فصيلة هذه الأمور كذلك؟ الفصيلة نفسها مع اختلاف الأسس والأبعاد النفسية والغايات المبهمة اللاّواعية؟

ممكن، ممكن، وغير ممكن، غير ممكن أيضاً. لم أكن أزمع أمراً

تلك اللّيلة؛ أم لعلّي كنتُ، دون علمي؟ وانتهى كلّ شيء دون تردّد أو إحجام، وتحوّلتُ إلى جهة أخرى ذات امتياز ولم تساورني الظنون ولا فارقتني روح لذّة ـ أم الأصحّ.. لذّة روح؟ ـ لا شبيه لها. وبعد ذلك، أُسدل السّتار ولم يتفوه العقل بكلمة أو يرفع أصبع احتجاج أو يطلب تفسيراً. ما هذا، إذن؟

قمتُ أرتدي ثياب المنزل وأتجه نحو الحاكي أروم وضع أسطوانة تريحني، حينما سمعتُ نداء عمّة قادرية الخافت، فتذكّرتُ العشاء وشعرتُ بالجوع فعلاً آنذاك. نزلتُ واعتذرت لها وأكلتُ بسرعة عشاءها البارد.

لم تعكر سماء الصباح الملبّدة ولا زخّات المطر، مزاجي الرّائق وأنا في طريقي للعمل. نسيتُ أحلامي كالعادة، ونسيتُ التفاسير الّتي وضعتها لها عند استيقاظي فجراً؛ وكنت سعيداً بذلك.

شعرتُ، قبيل اندماجي بالتصاميم الّتي كنتُ أشتغل فيها مساء أمس، بأنّي أملك تفرّداً نادراً، وأنّي إنسان متفوّق. هنالك طاقاتي الإبداعية في الهندسة وقابلياتي الذهنية واستقلالي الحقيقي.. المادّي والنّفسيّ. ماذا يملك الإنسان المتفوّق غير هذا؟ وتملّكني إحساس، وأنا أقف منحنياً على المكتب، بأن لديَّ ما أصنعه بحياتي وبأنّي لا أشبه كلّ هذا الذّباب البشري المحيط بي. إنّ في داخلي ينبوعاً لأمور فذّة غامضة، تبعث على الرّيبة، ولكنها ترسم خطوط إنسان جديد. أيمكن هذا؟ أعني أن أكون إنساناً لا مثيل له، لأنّي اغتسلتُ بمياه تجربة غريبة وعظيمة، هزّتْ كياني وبدلتني بالكامل؟

جلستُ ساكناً، غير قادر على التركيز في تفكيري. إنّ مثل هذه الومضات الذهنية الّتي تشتعل في القمة هكذا فجأة، تجعلني معطلاً،

شبه مشلول. كيف يمكنني أن أشعر وأن أفكر جدّياً بهذه الأمور؟

صحيح أنّ أمراً ما، تجربة ما، حادثة ما لا يمكن وصفها بصفة الاعتياد، قد انهدَّتْ عليَّ كالصاعقة؛ ولقد بقيتُ حياً بعد ذلك؛ أمّا الافتراض بأنّ «هذا» صيَّر مني إنساناً لا شبيه له، فذلك ما يقتضي البرهنة عليه. والإحساس المخلص جداً بالتفوّق، لا يكفي؛ بل هو العمل.. العمل الّذي ينعكس على النّفس ـ أو الرّوح؟ ـ ويمنحها بعداً لم تكن تملكه من قبل. بعدٌ بالكثافة. بعدٌ بالخصوبة. بعدٌ بالتفرد. بعدٌ بالقدرة على المواجهة. بعدٌ بالتفوّق. هذا هو.. بعدٌ بالتفوّق مبنيٌ على تلك الأبعاد الأخرى. إنّما لا يجب نسيان الأساس.. العمل. العمل. العمل. وأنا هل عملتُ حقيقةً؟ هل تصرفتُ حقاً؟ أم.. أم كنتُ معمولاً به وبواسطته، مطوّفاً على سطح نهر هائج؟

ـ لا ضير عليك يا بنيّ، فلعلّ العالم يزداد سعادة إذ ينضم إلى النّخبة البشرية شاب متفوّق.. آخر. لا ضير عليك، على الإطلاق.

كان، كالعادة، يبتسم، جالساً إلى الطاولة أمامي في مطعم «فاروق»، يحاول أن يخفي عدم انسجامه مع الجوّ الجديد الّذي سقته إليه. اتّصلتُ بخالي قبيل الظهر حين لم أعد أستطيع أن أعمل، ودعوته للغداء معي بعد أن عرفتُ منه أنه ينوي أن يغادر إلى دار العجزة عمّا قريب. وكنتُ سعيداً وأنا أرافقه إلى المطعم وأحدّثه خلال الطريق عمّا حدث لي وعمّا فكّرتُ به. أُظْلِم وجهه، حتّى خلت لحيته تغيّر لونها؛ ولكنه لم يعلق بشيء حتّى وصلتُ به إلى حكاية مشاعر التفوّق؛ عند ذاك وجد في نفسه القوّة ليتهكّم بهدوء.

كان الزّبائن قلّة في تلك السّاعة المبكرة قليلاً من الظهر، وكنتُ ماأزال سعيداً بوجود هذا العجوز ذي القلب العطوف برفقتي. لم

يستمرّ المطر وصفا الجو وعادت الشّمس ترسل أشعتها الحارة الجميلة. جلبوا لنا الطّعام الّذي طلبنا فانشغل به مستحسناً مذاقه وجودة طبخه. ثمّ إنّه وجد الفرصة خلال ذلك ليتكلّم:

ـ أنا لا أحبّ البشر الضعفاء. ضعفاء.. أعني بهم أولئك القائمين في نهاية الطرف الأقصى للضعف والقوّة. لا أحبّ المستكين ولا أحبّ الطاغية. هذا الأخير، ضعيف إنسانياً لأنّه يخاف باستمرار فيتحوّل إلى طاغية. لا أحبّ الاثنين.

تناول قدح الماء فشرب منه جرعة طويلة:

ـ هنالك أيضاً، نسيتهم، المخاتلون في ضعفهم؛ ضعفاء يخفون ضعفهم بطريقة أو أخرى. سخافة. يستعملون طرقاً ملتوية للظهور بمظاهر أخرى. لا أحبّ هؤلاء أيضاً. وأنت يا هاشم يا بنيّ، إنسان محظوظ، لأنّك مستقلّ مادّياً. هذه نعمة كبرى. لستَ تابعاً لأحد. حتّى والدك يحتاج إليك؛ وأنت في الشركة موظف ذو امتياز، لأنّك أحد الشركاء أيضاً. أترى ما أعني؟

لم يكن من عادة خالي أن يستسيغ الكلام معي هكذا؛ وهو بالطبع لم يفعل ذلك من قبل، لذلك تهجّستُ بأنّه، ربّما، كان على وشك أن يحزنني بأقوال أخرى قد تكون متعلقة بقراره الأخير في اختيار المأوى النهائي.

ـ هذا صحيح يا خالي. ماذا تريدني أن أعمل؟ حتّى أنت ترفض أن أساعدك في أيامك هذه، وتفضّل أن تقصد دار العجزة.

ابتسم بأسى. بقي يبتسم، ناظراً إليَّ بعينين يطفح منهما الحنان. لحظات، لحظات:

ـ دار العجزة! نعم. نعم. كنتُ أريد أن أكلّمك قبل أن أدخلها؛ وأنا مسرور لتمكّني من ذلك. انظر إليَّ يا بني يا هاشم ولا يزعجك

كلامي، أرجوك. أنا رجل صموت عادة؛ لم يعد يهمّني الآن ما يحدث في هذه الدّنيا. أنت تعلم هذا؛ غير أنّك تهمّني. لا أستطيع أن انقطع عن التفكير فيك وفي.. وفي حياتك وما.. وما سيأتي. أنت تصدقني، أليس كذلك؟

ـ بالطبع. بالطبع يا خالي. ماذا تظنّ؟

ـ حسناً. هذا شيء حسن.

ثمّ عاد يشرب من قدح الماء ويضعه جانباً:

ـ يضعون من البهارات هذه الأيام ما يشاؤون، وأنا غير متعوّد عليها. لا يهمّ، ماذا يمكن أن يحدث؟ كنتُ أريد أن أقول لك كلمة قبل أن أسمع منك هذه الأخبار الأخيرة. أنا أظنّ بأنّ هذه المرأة الّتي تكلمتْ معك، على صواب. عليك أن تأخذ الأمر بجدّية أكثر. لسنا في فترة ذهبية، وكلّ شيء ممكن الحدوث؛ ولستَ على حق إذ تعتقد أنّهم يهزلون أو أنّهم يهدّدون ولا يعملون شيئاً. وأنت، أنت يا بنيّ، ماذا أقول، هل تشعر.. هل لاتزال تفتقد والدتك المرحومة؟

ـ ماذا؟ لا أعلم بالضبط. لم أفكّر.. لم أفكّر بهذا.

ـ أعني يا بنيّ.. لا تبقَ شاعراً بفقدانها، غير قادر على الاندماج في الحياة.. حياتك. أتفهم ما أقول؟ عندنا يقولون إنّه ابن أمّه، أي أنّه كان طفلاً مدلّلاً، لم ينضج.

ثمّ أشار بذراعه إشارات غامضة:

ـ هكذا يقولون. اللّعنة. لا أدري لماذا..

كنتُ على وشك الاضطراب:

ـ لا أفهم منك الكثير يا خالي. ماذا تريد أن تقول؟ أتقصد بأنّي كنتُ مدلّلاً و.. ومفسوداً، وأنّي لم أنضج بعد؟ أتعني هذا؟ قل لي.

ـ كلاّ. مفسوداً؟ من قال هذا! مدلّل.. نعم. كلّ الامّهات يدلّلن ولدهن الوحيد. ماذا في ذلك؟ ولكن.. أعني.. هناك والدك.

وأمسك بمنديل الطّعام الأبيض فدعكه ورماه على المائدة:

ـ لديّ شعور، لا أدري مدى صدقه؛ شعور فقط، بأنّك تظلم أباك. هذا ما أريد أن أقوله لك.

ـ ولِمَ تقول لي هذا الآن؟

ـ لأنّي لن أكون معك بعد أيام قليلة، ومن يدري متى نلتقي، وهل نلتقي؛ ولأنّي أيضاً أراك تتصرف باتجاه معين. اسمع يا هاشم، توجد أمور لا يعرفها أحد سواي في الدّنيا، وأنا.. أنا إذ أفصح لك عنها فبسبب محبّتي لك لا غير، ولأنّي، كما تراني، راحل عن قريب؛ فلا تنزعج أكثر مما يجب وخذ الحقائق كما هي ولا تحمّلها معانيَ من عندك لا توجد فيها.

لحظة صمت غير مريح:

ـ أمّك سناء رحمة الله عليها، في الحقيقة، لم تكن قوية البنية والأعصاب، ولقد عانت منذ الصّغر وعانينا معها الكثير حتّى كبرت فاستقامت أمورها قليلاً، إلاّ أنّها بقيتْ في غاية الرّقة وعدم التحمّل؛ فلم تستطع أن تعيش مع والدك بشكل طبيعي وكما.. كما يجب. لم يكن هو السّبب في كلّ شيء. كلاّ. الشهادة لله. لم يكن هو السّبب. هي لم تكن متينة الأعصاب ولا تملك القابلية الجسدية للمقاومة والتحمّل.

كنتُ، مع خفقان قلبي المتسارع، مرتجف الأطراف:

ـ هذا غير صحيح. أنت تعلم جيداً يا خالي بأنّه غير صحيح؛ وإذا كانت مريضة.. أو أي شيء آخر.. فبسببه هو، هو الّذي أمرضها

وأتعبها وأماتها. هو.. هو لا غيره. لقد رأيتها تتهاوى ميتة تحت قدميه.

مَدَّ ذراعيه فأمسك بيديَّ وضغط عليهما:

ـ نعم يا بنيّ، نعم. هذا صحيح. لقد شهدتَ أموراً مروِّعة حقاً. هذا صحيح؛ ولكن لا فائدة من معايشتها وتذكّرها. لا فائدة أبداً؛ وأنت تربطها بأبيك وتسمّم حياتك وحياته، وهو لا علاقة مباشرة له بما حدث. أنت ابنه الوحيد وهو لم يتزوّج من أجلك أنت بالدرجة الأولى، ثمّ تأتي لتتكلّم هكذا وتريد أن تنتقم منه! سبحان الله! وأنا يا هاشم، أرجوك، لا غرض لي في هذا كلّه، لكنّني.. للحق.. أقول لك لقد عانينا معها أنا ووالدي.. جدّك.. عانينا طويلاً. ثمّ تصوّرنا، كما قيل لنا، إنّها قد تقوى على الحياة حين تتزوّج وتنجب. ولم نكن مخطئين تماماً، ولكن المهمّة كانت عسيرةً عليها، إذ لم تتحمّل صدمة الزّواج ومصاعبه؛ ولولاك.. لولا وجودك السحري في حياتها لما عاشت كلّ هذه الأعوام رحمة الله عليها.

ـ ألا تحسّ يا خالي بأنّك تتجنّى على أمّي سناء وعليَّ؟ لماذا؟

أردتُ أن أجيبه بهدوء وبتعقّل، لكنّ صوتي علا ثمّ أخذ يعلو ويقسو دون أن أقصد:

ـ وأنت تدافع عن أبي! عجباً! وتتصوّر أنّي أريد الانتقام منه! من قال هذا؟ أجبني من فضلك... من قال هذا؟ وماذا تريدني أن أفعل من أجله؟ أنا مستغرب منك كلّ هذه الأحاديث. حقاً! ما هذه الأمور!

بهت خالي رؤوف وتراجع في كرسيه مذهولاً؛ ثمّ شهق بالماء الّذي كان يشربه، فأخذ يقحّ ويتهوّع ويكاد يلقي بجوفه إلى الخارج. قمتُ أساعده وأهدئ من تأثير الصدمة عليه، وأسرع إلينا خادم

فجلب قدحاً آخر من الماء. استرجع خالي بعد دقائق وضعه السّابق وراح يمسح وجهه وفمه معتذراً عمّا حدث. لبث ساكناً، يحدّق إلى الصحون الفارغة أمامه ويحرّك شفتيه بين لحظة وأخرى. كانت لحيته الكثّة متداخلة الشّعر، تغطّي تقاطيعه من جهة وتشوّهها من جهة ثانية. لم يعجبني أن أحثّه على الكلام. كنتُ مضطرباً، منزعجاً، متورطاً، محرجاً، غائم الأفكار، غير مصمّم على عمل أيّ شيء؛ وكنتُ، مع حزني، أودّ من هذا الشيخ أن يمّحي من أمامي.

ـ أرجوك يا بنيّ، لا تكلّمني بشدّة. أرجوك.

كان صوته خشناً جداً، منكسراً، حزيناً حزيناً. رفع يده اليمنى وأمرَّها على لحيته ورأسه:

ـ يبدو أنّي ضعيف للغاية دون أن أشعر. اعذرني إذا كنتُ أسأتُ بكلامي إليك، فلم يكن هذا قصدي. يخيّل إليَّ أنّي، في هذا العمر، لستُ مهيئاً لنصح النّاس.

أردتُ أن أقاطعه، لعلّي أعيد الصفاء إلى جلستنا، فرفع كفّه بيننا. كانت أصابعه العظميّة النحيلة دكناء بأظافر طويلة قذرة:

ـ لا تزد يا بنيّ. لقد دعوتني وجئتُ خصيصاً لأراك وأكلّمك، وقد حصل كلّ هذا. لا تغضب نفسك دون داعٍ. أنت دعوتني للغداء، أليس كذلك؟ وإلاّ، فلا أدري هل أحمل من النقود ما يكفي لدفع ثمن هذه الصحون الكثيرة؟!

ثمّ مَدَّ يده يتفتّش في جيوبه عمّا لا أدري.

تقبل علينا الآلام دفعة واحدة، وليس كذلك أفراح هذه الحياة القليلة؛ ومثل لسعات العقرب، تشعر بأنّك تحترق دون نار في

موضع ما من نفسك لا يعرفه الطبّ. وتمضي بلهفة تروم أن يغيثك أحد، فتضيع آنذاك في صحراء دون حدود.

عدتُ، مساءً، أستمع إلى الموسيقى وأنتظر أن تنهمر دموعي، دون جدوى. لم تنل الأنغام ممّا بي، وانكمشتُ متكوّماً كالقنفذ في الكرسي الوثير حتّى ساعات الفجر الأولى. ثمّ قمتُ صباحاً أجرجر نفسي، فاتّصلتُ بالسيّد المدير أعتذر عن الحضور لمرضي.

نمتُ حتّى الظهر، ونمتُ بعد الظهر. دون أحلام. أردت ألاَّ أجيب على أي نداء. أردتّ ألاَّ أسمع أية تعزية. أردتُ ألاَّ أحيا. وكنتُ غير عارف بالضبط أيّ أمر خفي عميق يسبّب لي هذا الوضع اللاّمألوف. ثمّ أنّي، مع صداع مميت، جلستُ عصراً حوالي الخامسة في فراشي أريد أن أنقذ ذاتي أخيراً. كانت الطرقات على الباب مستمرّة منذ ساعات، والظلام يوشك أن يطبق، وشريحة من السّماء تتبدّى من شقّ السّتائر وهي تترجرج بزرقة وحبور. تعلّق ناظري بهذه الإشارة المنوّرة المتلألئة من بعيد، وتذكّرتُ بأنّي الجائع الحزين المتألّم المعزول المستوحش، لم أبكِ دمعة واحدة.

ثمّ تمنّيتُ على نفسي ألاَّ أموت موجوع الرّأس، فقمتُ متثاقلاً وابتلعت حبّة الإسبرين ثمّ فتحتُ شبّاكي على الأفق. وبعد أن اغتسلتُ وأكلتُ وطمأنت أهلي وشربت قدحين من الشّاي الثّقيل، جلستُ أحاول أن أعرف السرّ في انشغال ذهني باسم تلك الطبيبة خلال السّاعات الأخيرة الصعبة الماضية. كان ذلك شأناً غريباً من شؤوني لم يتسنّ لي البحث فيه بسبب انشدادي إلى جهة أخرى؛ فلقد انتهيتُ أمس مع خالي إلى نتيجة لا سلوى فيها لأحد. قدمتُ له كومة من الاعتذارات ونحن عائدان، وبقيت أزيد عليها وأزيد. فارقتني تلك العواطف الشديدة السخيفة الّتي ساورتني زمناً تجاهه. كنتُ أراه

بجانبي، مبتسماً ابتسامته الطيبة تلك، يودّعني وداعاً سيّئاً، لا ينفع لإيقافه أيّ حدث أرضيّ أو سماويّ. وكنتُ، بالطبع، أريد أن أعذّب نفسي من أجله، غير أنّي أقلعتُ عن هذه الفكرة بعد ذلك. وهكذا كنتُ، ذلك المساء، في شرفة خلف المطبخ تطلّ على حديقة صغيرة وجدار، أجلس محاولاً بمفردي أن أتماسك وأن أجدّد عهدي بأعماقي الأصيلة.

وإذا كنتُ قد تركتُ، مع بعض الصعوبة، خالي العزيز رؤوف يستشهد بمفرده، فإنّ بعض ما قاله لي يمتلك أهمّية طول البقاء والقابليّة على تغيير الكثير من أموري. لقد قام بخلط القيم والانطباعات والآراء غير الناضجة في حديثه بحيث جعل العثور على الإبرة الذهبية في هذا الدغل شاقّاً على من لا يمتلكون الصبر مثلي.

ماذا كان يظنّ أنّي سأفعل حين يتحدّث عن أمّي سناء كمخلوقة مختلّة الأعصاب أو مريضة؟ أكان يظنّ أنّ ذلك قد يقلل من حبّ ابنها اليتيم لها؟ ثم.. ما دخلي أنا فيمن كان السّبب في ذلك الشّقاء العائليّ الّذي عشته في طفولتي؟ أكان يريد أن يبعد عن الأب كلّ مسؤولية، كلّ ذنب، كلّ تهمة، هو الصحيح البدن والأعصاب؟ وما علاقتي أنا؟ أيظنّني نصبتُ نفسي جلاّداً أو قاضياً أو إلهاً، أقتصّ من النّاس لأسباب أعرفها أنا وحدي! ولِمَ يتصوّرني أنتقم من أبي؟ غريب! لأيّة مقولات مجهولة يستند؟ أكاد أشكّ في أنّه خرف. كان أبي معي على الدّوام حين أردتُ أن أعيش.. أن أعيش مثلهم، مرفّهاً متظاهراً بالسعادة. أتذكّر، مساء الخطبة الرسمية، في حديقة دارهم الواسعة في المنصور، كم كان أبي سعيداً وهو يتعرّف على آمال وكان خالي بجوارنا، ولا أظنّه نسي تلك الأمارات الّتي لا تغيب عن العين. وكنتُ سعيداً لسعادتهم.. سعادة العائلة. وانتهى الموضوع

كما بدأ، بلطف ونظام وحسبما تقتضيه الأصول. كان سعيداً من أجلي إذن، وكنتُ سعيداً من جهة أخرى. ثمّ جرى ما جرى، فانتكستْ به العواطف وانقلبت. أيمكن أن نسمّي هذا نوعاً من أنواع الانتقام؟ ما أظلم النّاس! وأنا الآن، لن يؤلمني أن تُمسّ صورة أمّي سناء الطّاهرة بأقوال.. بماذا أصفها؟.. بأقوال تربكني لسبب أو لآخر. كانت، في الواقع، مرهفة الأحاسيس بدرجة عالية. هي تقرأ الأرواح، وترى ذلك في النّظرات. يكفي أن تنظر إليَّ لتعلم بِمَ أفكّر وماذا أريد. وهو، خالي، يعرفها جيداً منذ الصغر، ولديه حكايات لا تنتهي يرويها عن ذلك. إلاّ أنّه.. الثّعلب العجوز.. لم يكن يقصد هذا. كلاّ، إنّه لا يقصده. إنّه لا يقصدها هي. لقد انتهتْ بالنسبة إليه ـ وما أشدّ خطأه! ـ وهو مهموم بتوجيه فوهته نحو شخص آخر يعرفه، ولا يعرفه.. نحوي أنا! إنّ لديه ما يضمره ـ وما أجهله ـ عني. يعرف شيئاً مهمّاً عني. اللّعنة. هذا هو؛ ولم يطلق الكلمات من وراء لحيته البيضاء عبثاً في الهواء. أراد أن يصيب مني مقتلاً؛ ولقد تعثّر ذلك العجوز المسكين وأضاع رؤية الهدف.

كنتُ جالساً وسط الظّلام، لا شيء حولي وأمامي الحديقة الصغيرة الجرداء وذلك الحائط الصامت، وكنتُ حزيناً. كان خالي رؤوف شخصاً غالياً عليَّ. وددت أن أفاتحه. كان أخاً كبيراً لأمّي سناء، يملك سجلاً طويلاً من الشّقاء وسوء معاملة الحياة له، وبين ضلوعه قلب معذّب. كلّ هذا جعله، في نظري، يحوز القدرة على فهمي؛ ربّما، ربّما. كانت «ربّما» هذه تؤخّرني يوماً بعد يوم؛ وأنا لا أريد شكاً ولو بمقدار عشر المعشار من الألف. الاحتمال. الإمكان. الجواز. الترجرج. كلاّ. لا طاقة لي على انتظار جواب غير معروف. ما أمرَّ السؤال إذن.. سؤالي! أم أنّني، في الحقيقة، لا أتساءل لأنّي

أعرف الجواب؛ بل أريد أمراً آخر يتفوّق على الأجوبة كلّها؟

أمـر آخـر.. أمـر آخـر؛ هكـذا ألـفّ وأدور ثـم أرجـع لأمـوري الأخرى. نعم، هو أمرٌ من الأمور الأخرى، وهو أمر ثمين نادر الوجود عسير المنال. حدّثتها قليلاً عنه في جلستنا الفريدة قبل أيام. بدتْ لي على وشك الفهم، ثمّ قلبتْ وجهها وانصرفتْ عني تكلّمني عن شؤون الدّنيا الرخيصة. إنّها.. ما أقساها! اضطربنا، أنا وآمال، وسط معمعة الأهل والأقارب وصراخ الأطفال وزغاريد النّساء، فلم يستطع أيٌّ منّا وضع أحد خاتمَي الخطوبة في أصبع الآخر فانبرت هي لها، برزتْ من تحت الأرض وهتفتْ بابنة عمّها أن تدفع أصبعها بقوّة لإدخال الخاتم!

وبسبب هذه النّظرة الّتي تقسر نظام الأشياء الطبيعيّة من أجل أن تحشره في نظامها المصطنع، يتحوّل خاتم الذّهب الخالص إلى خاتم من رمل، وتفسد العلاقات.

قمتُ لفكرة طرأت على بالي. كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة إلاّ بضع دقائق وكان اللّيل ساكناً. قيل لي إنّها تزوّجتْ قبل خطبتنا بعدّة أشهر وقضت مع زوجها شهر العسل في أوروبّا. كانت متباهية بما تملك، صلبة راسخة الاعتقاد بأهمّيتها للبشر. رفع زوجها السمّاعة فطلبتها مدعياً بأنّي أتكلّم من المستشفى. أزعجها ذلك. لم يهمّني. قلتُ لها إنّي في حالة سيئة فقطعت عليَّ الحديث هاتفة بأنْ لا وقت لديها لسماع هذا الهذر، ويستحسن أن أفيق ممّا أنا فيه لأنّ الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ فسألتها.. أيّة أمور؟ الأمور الأخرى؟ فسكنتْ لحظات استطعتُ فيها أن أسمع صوت زوجها يتكلّم بما لم أميزه، ثم إنّها قالت.. شكراً، تصبح على خير، وأغلقت الخط.

كان هذا آخر موقف متألّق بالتباسه، أجد نفسي فيه، متسائلاً عمّا جرى ولماذا وكيف.

في اليوم الثّالث من العمل، كنتُ أنجزت ما يقارب نصف التخطيطات والتّصاميم المطلوبة مني، فأحببت أن أُريها للسيد المدير وأسأله النّصح وما لديه من توجيهات وملاحظات. كنتُ راضياً، قريباً من الشّعور بالسعادة وأنا أعرض عليه أعمالي تلك وما فكّرت بتحقيقه كهدف هندسي يسترشد بما قاله لي عن أسس المشروع.

أراحه شغلي ولم ينل إعجابه تماماً. رآه مايزال يحتاج إلى عملية شدّ حزام للاقتصاد بالنفقات والاستفادة من المساحات والابتعاد عن البذخ الشّاعري المكلف. قال لي:

ـ أنا أعرف بأنّك تؤمن بهذه الأشياء التي تضعها في خرائطك، لأنّ الإيمان وحده هو الّذي يدفعك إلى نسيان ما يُطلب منك.

وضحك:

ـ ولكننا يا أخ هاشم في زمن اللاّإيمان، أو إذا أردتَ حقيقة أخرى، فهو زمن من الإيمانات المتعدّدة.. هذا صحيح لغوياً؟ وإذا أمكن أن أقولها بصيغة أخرى.. زمن الإيمان الملائم. أترى؟

ـ هذه آراء غريبة حقاً، أستاذ، ومقلقة في نفس الوقت.

ـ مقلقة!؟ كلاّ؛ قد تكون غير مألوفة، لأنّ الحقائق الجديدة تبدو غريبة أكثر الأحيان، ولكنها غير مقلقة؛ لا يجب أن تكون مقلقة، أتفهم؟

بقيتُ بعد انصرافي، مشغول الفكر بهذه الأقوال الّتي أطلقها السيّد المدير بخفّة وراحة بال. لم تكن لديه حقائق جديدة، بل مشوّهة؛ فإذا كان للإيمان أوجه مختلفة فهذا يعني زوال جوهره. أم لعلّه كان

يقصد بأنّه يتمظهر بمظاهر متعدّدة، لأنّه بطبيعته لا يملك مظهراً واحداً؟

في هذه الحالة، فأنا لا أستطيع الوثوق تماماً بالحقائق الّتي توصّلتُ إليها بعد تلك اللّيلة، وعن معنى تلك اللّيلة ـ أو معنى ذلك الحدث ـ لسبب بسيط هو أن هنالك على الدّوام حقائق جديدة تتبعها إيمانات جديدة. أم أنّ العكس هو الصحيح.. الإيمانات المتغيرة تخلق حقائق جديدة!

ومهما يكن من أمر فإنّ السّمات الشّاعرية الّتي قال السيّد المدير إنّي أضعها عن إيمان في رسومي للدور، أخذتْ تتضاءل تدريجياً دون أن أحسّ بأي تغيّر أو تجديد في الحقائق أو الإيمانات.

كان العمل يمنحني شعلة من الحرارة العاطفيّة تخفّف عن أعصابي كثيراً؛ وكنتُ أشعر بتعبي يزداد حين أعود إلى الجوّ القديم منتظراً أن أرتاح!

ورغم انهماكي في الخدمة ساعات الدّوام كلّها وبضع ساعات بعده، فإنّ المطلوب كان مستعصياً على التنفيذ كما يجب وفي الوقت الملائم، فاضطررتُ أن آخذ نفسي بالعمل حتّى ساعة متأخرة من اللّيل.

كنتُ ذلك المساء مضطرباً لغير موجب. اتّصلتُ تلفونياً بدارنا أرجو أن أكلّم عمّة قادرية في شأن من شؤوني الشخصية فجاءني الوالد بصوته المتقطّع الجاف. استغربتُ أن تلين لهجته بعد أن عرفني وأن يكرّر سؤاله عن سبب تأخّري هذه الأيام في الأياب إلى البيت. كان والداً عطوفاً رقيقاً. اعتذرت له بكثرة العمل وضيق الوقت ووعدته بعدم التأخر في الأيام المقبلة. سألته عن عمّة قادرية فناداها وكلّمتها.

هزّتني هذه المحادثة القصيرة الأليفة مع والدي. لعلّه كان على حقّ، من يملك أن ينفي ذلك؟

وأنا، الشريك الثّالث معهما، كنتُ أضعف إداركاً من أن أفهم شيئاً مما يجري أو أسعى لتغييره. كنا، هما وأنا معهما، مسوقين ضمن تناقضات الأمزجة الفردّية، نحو شقاء عائليّ ثابت ومستديم لولا سقوطها الفجائي في أوّل الشوط. ولقد أنهى ذلك الحادث كلّ صراع؛ وتبقّى عليَّ بمفردي، أن أتوصّل إلى حقيقة علاقتي بما مضى وبأمّي سناء. انتبهت إلى ضربات خفيفة على زجاج النّافذة فتوجّهت إليها فإذا بها قطرات مطر كثيف متهاطل. أدهشني أن أجد السّاعة قد جاوزت العاشرة. إنّه وقت متأخّر في ليالي الشتاء. كانت بي حاجة للتوقّف أمام الزّجاج وتأمّل قطرات المطر النّازلة وأضواء الشّارع وانعكاساتها على الأرض المبلّلة. كأنّي أميل إلى النّوم واقفاً! أو إلى ما يشبه الغياب عن الوعي، مع بقاء الحواسّ مستيقظة تعمل. إنّه المطر السّاحر والاضطراب الخفيّ الّذي يملكني؛ وهذه القطرات المتزحلقة بخفّة على الزّجاج المضبّب، تبعث فيَّ حياً ذلك المساء المجنون ـ خارج مجرى الزّمن ـ حين كنتُ أرتدي ثياباً سوداء وقميصاً أبيض كالثلج وربطة عنق زرقاء لامعة، وأقف.. أقف، أتذكّر جيداً، أمام المرآة؛ طويلاً بغير رشاقة ولكن بجسم يثير الإعجاب. كنتُ رتّبتُ كلّ شيء، أو أنّ كلّ شيء ترتّب من تلقاء ذاته وكما يجب، وكنتُ محتاجاً إلى أمر غامض لم أتبيّنه قطّ. كنا، والدي وعمّة قادرية وأولئك النّسوة قريبات والدي، قرّرنا أن نتوجّه مبكرين إلى النّادي لتلافي النّواقص الّتي قد تحصل؛ وكنتُ أعلمتُ آمال بذلك صباحاً ورجوتها أن ترتاح قليلاً بعد الظهر، لأنّ أمامنا، لا اللّيل بطوله حسب، بل السّفر في الصّباح الباكر إلى لندن؛ فضحكت

مبتهجة كأنّي قصصتُ عليها نكتة بارعة! ثم إنّنا ذهبنا حوالي الثّالثة والنّصف مساءً إلى النّادي وانغمسنا في مشاكل لا تعدّ ولا تحصى؛ ولم أتذكّر خالي رؤوف ووعدي له باصطحابه إلى النّادي، إلاّ حوالي الخامسة والرّبع. استأذنتُ أبي وخرجت. كنتُ أسوق بسرعة متوسّطة، وكان المطر يزداد زخماً ويكاد يمنع عني رؤية الشّارع. آنذاك، في الغالب، بدأ الحادث، بدأ أمر آخر لا أجد له اسماً ولاأزال حائراً في وصفه وتفسيره. إنّه كما لو دخلتُ في دوّامة عظيمة أو أخذتني قوّة مجهولة جبّارة بين طيّاتها. إنّه الابتعاد الصدفي عن المسار الدّنيويّ المقرّر. إنّه الضياع اللاّإرادي بين الغيوم. لقد تواصلتُ، أو التصقت؟ بشريعة أخرى، وصرتُ تحت سطوة قدرة لانهائيّة. لم يكن ذلك وهماً أو تصوّراً؛ ولا كان واقعاً يمكن قبوله. وكنتُ في الفجوة الّتي تفصل بين بعدين ـ متناقضين / متقاربين ـ أنقّب عمّن بإمكانه «الاتصال» بما حدث لي. ولأنّي عرفتُ، منذ البدء، أن من سيقدر على تصديقي يحتاج أن ينظر في عينيَّ دون أن يسمعني، فقد كففتُ عن البحث.

كنتُ لاأزال بجوار الشبّاك والقطرات المتراكضة على الزّجاج. لا أحبّ هذا الانشغال والذّوبان في مجريات الماضي الّذي يفترسني فجأة؛ ليس ذلك بالتأكيد علامة صحّة جيّدة.

بدا لي أنّي لن أستطيع مواصلة العمل هذا المساء. عدتُ بكسل فجمعتُ أوراقي ورتّبتها على المكتب بنظام معيّن ثمّ ارتديت معطفي وسرت ببطء شديد خارجاً من بناية الشركة. لعلّي متعب تعباً من نوع خاص يجب أن أحذر منه. تعب الرّوح الغامض؛ ذلك التّعب الّذي لا يعترف به أحد والّذي يسوق البعض إلى القضاء على حياتهم. إنّه

تعب يتأتّى من مجموع كلّ أتعاب الحياة؛ بل هو، في الحقيقة عصارة هذه الأتعاب.

كان المطر شديداً ولم أكن أحمل مظلّتي، فسرتُ بسرعة نحو السيّارة. جلستُ وراء المقود ساكناً خامداً؛ لم أجفّف المطر عن رأسي ووجهي. مازلتُ في سورة ذلك الذّهول المستطيل والغياب عن الحاضر. ماذا يجري لي، مرّة أخرى؟

كنتُ هكذا أيضاً في سيارتي ذلك المساء المسحور، مرتدياً ثياب العرس السوداء بربطة زرقاء لامعة، وأنا أسوق آتياً من النّادي قاصداً بيت خالي رؤوف في الأعظمية، والمطر يتهاطل ثقيلاً حين.. حين تسربتْ إليَّ قشعريرة لذيذة زحفتْ بخفّة من وسط رقبتي وانحدرتْ منتشرة على كتفيَّ وذراعيَّ وظهري حتّى وسطي، فانتابني إثرها نوع من برودة الأعصاب والدّم وعدم الاكتراث المطلق. صرتُ أرى نفسي من الخارج مبتعداً عن نفسي، ولا تعلّق لي بها؛ أعمل ما أعمل دون صلة حارّة بيني وبين ما أريد أن أعمل. كنتُ مراقباً محايداً، يداخلني خوف تخالطه تلك اللّذة الّتي لامستني مع القشعريرة الأولى.

كانت لحظات غائمة ذات سحر لادنيودي عجيب، تبعث فيَّ الآن، إذ أسترجعها، خشية كبرى تقارب الفزع.

أدرتُ مفتاح التشغيل فلم تستجب السيّارة، لكنها زمجرت بعد المحاولة الثّانية وانتظمت أصواتها. أبقيتها لتسخن فترة أطول ممّا ينبغي، كأنّي لا أريد أن أتحرّك مغادراً هذه السّاحة المظلمة. حرّكتُ مبدّل السّرعة وتراجعت إلى الوراء قليلاً ثمّ استدرتُ باتجاه الشّارع العام.

كانت قطرات المطر تبين تحت أضواء السيّارة البيضاء، خيوطاً

ناعمة تتواصل بين الأرض والسماء؛ وكنتُ، على حذر، متراخياً في جلستي أسوق بانتباه واتزان.

كان شارع الكرّادة /خارج خالياً هذه السّاعة من اللّيل، وكنتُ أتجه نحو ساحة «كمال جنبلاط» مصمّماً أن أعبر الجسر المعلّق بعد ذلك لأصل إلى البيت في وقت وجيز. ضغطتُ على زرّ التسخين فاندفع الهواء الدّافئ وغمرني بحرارته. كانت السّاحة، على بُعدِ مائة متر، تبدو ساطعة الأنوار. كنتُ مسترخياً مستسلماً لتعبي، حين وصلتُ إلى مشارف السّاحة. خطر لي، هنيهة، أنّ كافّة التجارب الّتي يمكن أن يعيشها الإنسان خلال حياته، يجب أن تكون ولو بجزء بسيط، مفهومة أو قابلة للفهم على الأقل، من قبل البشر الآخرين. واستناداً لهذا المفهوم... كانت السيّارة السّوداء الطويلة الّتي برزت فجأة من بطن الظّلام على الجهة اليمنى، مطفأة الأنوار؛ وكانت تتقدّم بسرعة وتهوّر لافتين للنظر، نحو وسط السّاحة بمواجهتي. ولمّا كنتُ بكامل انتباهي، ولأنّ السّيارة السّوداء صدمتْ الرّصيف وتوقّفتْ وسط السّاحة على بعد أمتار قليلة أمامي، فقد أدركتُ عن يقين أنّي بصدد معاناة حادث مرور.

ضغطتُ بقوّة على دوّاسة الكابح وحاولت الإفلات بإدارة المقود إلى الجهة الخارجية.. فلم أفلح وكانت الصدمة قاسية ومرعبة، أرتجّ لها جسدي وضرب المقود صدغي.. ثم ساد الصمت.

كنتُ مضعضع الحواسّ يتملّكني الذّهول. لم أفهم حالاً ما جرى بالضبط، ولم يمنعني ذلك من الشّعور بالغضب، ففتحتُ الباب بجواري ونزلتُ من السيّارة. كنتُ دائخاً زائغ النّظر. أدهشني أنّ أحداً لم يخرج من تلك السيّارة السّوداء الغامضة الّتي صدمتُ القسم الخلفي منها. ضربتْ قطرات المطر الباردة وجهي وأنا أقترب متعثراً

من مكان السّائق. لم أرَ أحداً. كان زجاج السيّارة قاتم اللّون يمنع رؤية ما بداخلها. طرقتُ على هذا الزّجاج الغريب مرّة أو مرّتين وانتظرتُ. حينذاك سمعتُ من خلفي رفّة جناح أو صوت ريح خفيفة أو ربّما هبّة هواء يتحرّك.. وضربتْ رأسي لطمة قويّة حادّة خلتها كسَّرتْ أغلب عظام جمجمتي.

... كنتُ إذن، كنتُ في تلك الأمسية المنفردة عن الأماسي، أرتدي بدلة عريس سوداء بربطة عنق ذات زرقة لامعة وقميصاً أبيض ساطع البياض، كنتُ أنتقيته بعناية في إحدى سفراتي إلى الخارج؛ من ماركة «بيير كاردان» وهو مصبوب على جسمي كما لو خيط من أجلي، مع زينة بسيطة على جانب القلب. وقبل ذلك، ودون توصية من أحد، يجب أن أنوّه بامتلاكي لأغلى الملابس الدّاخلية الرّجالية الملوّنة والبيضاء المزركشة، ففي سوق إثارة الإعجاب توجد طرق ناجعة لا تخطر على البال دائماً. وبهذه الحال، كنتُ أجول بسيارتي شوارع بغداد الموحشة، تحت مطر منفلت غريب لا ينقطع وأنا بين مغلوب على أمري وبين مسلوب الإرادة، أحسّ بأنّي أفتّش عن أمرٍ ما لا أعرف كنهه بالضبط. ومن النادي، كما أخبرتُ والدي، لم أتوجّه إلى بيت خالي بل إلى دارنا الفارغة في الحارثية، حيث توقّفتُ قابعاً في السيّارة الغارقة هي الأخرى في الظلام. فترة من الزّمن، أسمع فيها المطر ينقر بإلحاح على السّقف والزّجاج والأعصاب. ثمّ خرجت أسير دون اكتراث فدخلتُ الدّار واتجهتُ صاعداً إلى حيث أقيم.. إلى تلك الشقّة الّتي بنيتها من أجلنا أنا وآمال. زارتها معي، زرناها معاً، كنا نزورها أغلب الأحيان. أبدتْ إعجابها بالبساطة الهندسية الّتي استطعتُ بها أن أحوّل غرفتين جرداوين ضائعتين في سطح المنزل، إلى دارة صغيرة ذات حميمية لا تُنكر. دخلتُ إلى

الصالة. كانت مضاءة بأنوار الشّارع البعيدة. هناك.. هناك في تلك الزّاوية قضينا وقتاً ممتعاً. وفي غرفة النّوم حبسنا أنفسنا لا نريد أن نغادرها. دخلتُ، دون قصد، الحمّام ووقفتُ بشكل عرضي أمام المرآة. كنتُ أنيقاً في ملبس فذّ، غائم العينين. عدَّلت من ربطة عنقي ومسحتُ الماء عن شعري وثيابي. ثمّ توقّفتُ جامداً وذراعاي متهدلتان إلى جانبي مثل تقاطيع وجهي. كانت صورتي ملوّنة فارغة.

كم كلّفتني هذه المرآة الصافية من وقتٍ لأعثر عليها! صافية تماماً؛ تمنحك مجاناً صورتك كما هي، كما هي بألوانها وشحوبها وقلقها وغيابها عن العالم واستلابها اللّاواعي. وبقيتُ واقفاً أمام المرآة الصافية، بقيتُ واقفاً. أعدّل ربطتي وأنظر في عينيَّ وأمسح شعري؛ ثمّ أعدّل ربطتي وأشدّ حزامي بعد أن أحلّه وأحدّ النّظر متمعّناً في عينيَّ. مشدوداً إلى المكان، مقيداً بزمن غير محدود، بقيتُ أمام المرأة. أتنهّد ولا يخطر لي شيء.. لا فكرة ولا صورة ولا ذكرى ولا تدبير. سمعتُ ساعة الحائط تدقّ، حينذاك، سبع دقّات، فهبطتُ أجول في أنحاء البيت الفارغ، من هنا إلى هناك، غير دارٍ عمّا أبحث. بعد ذلك عَنَّ لي بغتةً فأسرعتُ أخرج على عجل. صفعني المطر البارد بشدّة وأنا أتراكض باتجاه السيّارة وأدخلها. مكثتُ، لاهثاً، أراقب الماء ينهمر من أعلى على الزّجاجة الأمامية، يعكس أضواء لا أراها. ثمّ بدا لي فأدرتُ المحرّك وانطلقتُ مسرعاً.

كانت الشّوارع تفيض بماء المطر والسيّارات تتقدّم ببطءٍ شديد. أخذتُ شارع «دمشق» ثمّ انخرفتُ نحو شارع ١٤ تموز. كنتُ مرتاحاً، جالساً على نار؛ ناسياً كلّ شيء، متذكّراً كلّ شيء. وكنتُ صامتاً، منزوياً في أغوار الصمت العميقة؛ لا أريد أمراً معيناً وأشعر، بغموض، أنّ أمراً معيناً سيحدث لي.

عبرتُ الجسر الحديديّ متجهاً نحو الأعظميّة، واليوم خميس. لا شيء قبلي ولا شيء بعدي. الفراغ فقط. الفراغ؛ والشوارع مختنقة بالمطر والنّاس والسيّارات، والازدحام كثيف قرب الجامع والسّاعة تشير إلى السّابعة والنّصف وخمس دقائق والسّاحة الواسعة وسط الجامع خالية تسطع بأنوار قوية. لم يعرفني خادم القيّم وبقي منشغلاً بطعامه ينظر إليَّ شزراً؛ وحين طالبته بفتح باب المقبرة تصلّبتْ نظراته وتمتم بما لا أدري، فدسّستُ مبلغ المال الكبير في يده فاختنق بلقمته وأخفى النقود وقام مسرعاً فتبعته بتثاقل تقودني لهفة جارفة غامضة لزيارة أمّي سناء.

وحينما انغلق الباب خلفي توقّفتُ تحت السّقيفة، أتطلّع ببصرٍ مرتعش مستكشفاً الأنحاء حولي. كنتُ أرتجف مأخوذاً بما أنا فيه، والمطر ينزل باستمرار وبهدوء؛ وتحت دفقات الضوء الضعيفة المنعكسة عن أنوار الجامع، بانت المراقد مستكينة ضائعة في بلورات الماء المتلألئة؛ وكمن يُدفع بيدٍ غير مرئية تقدّمتُ متردداً، ظاناً بأنّي على معرفة بمكان قبرها. وانثالتْ عليَّ ريح مبلّلة وقطرات حادّة، ومع خطوتي الثّانية ترنّحتُ وسقطتُ، دون اكتراث، في حفرة ماء صغيرة، فلبثتُ هامداً رافعاً رأسي، أحاول أن أتذكّر تلك الإشارة الأخرى إلى قبرها. شجرة عالية، عالية؛ تنقسم قمّتها كثيفة الأغصان إلى قسمين يميلان كلّ إلى جانب. قمتُ بعد لأي ووقفتُ دون حراك، وبرودة الماء تمسكني من أطراف رأسي وكتفيَّ وصدري وذراعيَّ وساقيَّ. ومع ألفة عينيَّ للظلام وبروز الأشجار أمامي وحدسي للجهات، تقدّمتُ متهجاً نحو الغرب، بين قبور كالأشباح الرّابضة وأرض تميد زلقاً، وأنا أتمتم مع المطر غناءه الصامت الحزين؛ أسير وأتعثّر وأسير وأتشبّث بحافات القبور والأشجار، غير

مكلّم نفسي بل مكتفياً بمسح وجهي الجامد بين آن وآن. ثمّ كان أن أنقذني من حالة السوء هذه، ظلّ طويل عالٍ يتراقص في الجهة الغربية وتنشقّ الأغصان المتشابكة في قمّته إلى شقّين توأمين متباعدين؛ فتحاملتُ على جسدي الثّقيل وسرت أغذ الخطى. وبجوار الشجرة الغربية السّامقة، كان نور شفّاف يلفّ المرقد كأنّه مرسل من علٍ لأجله. ومع الارتياح العظيم والعميق الّذي سربلني، جلستُ قرب والدتي على الحافة الشرقية للقبر. كنت مبلّلاً حتّى العظام، محاطاً بألغاز إلّهية لا تُحلّ، مرتبكاً، شاعراً بحضور تكوينات علويّة حولي؛ وكنتُ أضع يديَّ متشابكتين في حجري، أتلقّى باستسلام وخزات المطر والرّيح والأصوات الغامضة. إذا كان قد جِيء بي إلى هنا، في هذا الوقت الصّعب الشّديد، فلغرض ما لا بد لي أن أتبينه عن كثب وألقاه وأفهمه. ولن أضيع سدى، وراحة النّفس لا ريب آتية بعد حين؛ وتحت الشجرة العالية المنشقّة الجبين، بجوار مكان خلود أمّي سناء، والمطر والبرد يقرضان جسمي تباطأتِ السّاعات في انسيابها الأبدي، ولم تخطر لي علاقاتي مع البشر أو العالم ولا ساورتني أسئلة عمّا أعمل. كنتُ في قلب بوتقة صيغتْ لي ومن أجل هذا الزّمن الّذي أنا فيه الآن. إنّي إذن في مطهر ذي وجهين، يكمن الثاني منهما خلف وجه الأوّل؛ ففيما وراء هذه الظّلمات العاصفة والطين الأسود والمطر والبرد والارتعاد، يتخافى ويتبدّى في الوقت نفسه، وجه أمّي سناء المنوّر، وجه النّقاء المطلق، وجه العطاء، وجه الحبّ المصفّى، وجه اللّانهائي. وكان عليَّ أن أتماسك وأتصابر لأنال أخيراً مباركة هذه السّاكنة قربي، وأن أبعد عن قلبي كلّ مضامين الخوف والرّهبة والفيجعة. وكنتُ واثقاً أنّي سأصمد للامتحان المرير الّذي أسلك طرقه الوعرة، وإنّي سألمس يدها النّورانية الشّفيفة، تمتدّ من وراء الأحجار.

وتراكمتْ، والوقت يمضي، أفكاري وهواجسي وارتجافاتي، وبدا كأن الأرض تتململ مع عويل الرّيح وتكاد تشقّها لمعات البرق وهدير الرّعد؛ ثمّ غمرني شعور بأنّي لن أقوى على البقاء سليم الجسّد معافى، حتّى يأذن القدر بإتمام الخير، فأخذتُ أتحسّس ببطءٍ ذراعيَّ وساقيَّ المتجمّدتين وصدري ورأسي، وكان الأمر عسيراً والسّاعة قد جاوزت منتصف اللّيل وأنفاسي تضيق وتبطئ، ثمّ قمتُ متثاقلاً شبه مشلول وسرتُ أتعثّر وألتمس المراقد أستند إليها كيلا أسقط في طريقي، حتّى وصلتُ إلى الممرّ حيث الباب فطرقته فلم يجبني أحد فارتكأت على الحائط ورفعتُ عينيَّ حينذاك إلى السّماء وكانت ملبدة بالغيوم الغاضبة، تخترقها أنصال البرق البيضاء بين الحين والحين، فتزمجر وتقصف وتقصف والرّيح عاتية مخبولة تهبّ من كلّ مكان تلاحق السّحب الرّاكضة وتشتّتها. شدّتني حركة الغيوم السّريعة وهي تتسابق مع نفسها، فبقيتُ غارقاً في مراقبتها وقطرات المطر تتهال من ثيابي، ورأسي إلى الحائط...

حسبتُ أنّي لم أصب إصابة خطيرة، لكن هذا الألمَ خلف رأسي يكاد يعمي بصري. ألم غريب لا يطاق، هاجمني على حين غرّة. أغمضتُ عينيَّ. كلاّ، لستُ سليماً معافى كما يجب. أخذني دوار شديد كاد يخرج بي عن المدار. كنتُ دائخاً، تدور بي الدّنيا، وينهش الألم المريع قفا جمجمتي. ثمّ كان أن أحسستُ بعد هنيهات براحة إلَهية لا تُنال، تسربل جسمي كلّه وتنشر فيه استرخاءً لذيذاً؛ أعقبتها لمسات تلك الأصابع الرّقيقة النّاعمة الدّافئة الّتي احتضنت يدي اليمنى بغاية الحنان وصارتْ تضغط عليها. كنتُ سعيداً مشوّشاً فاقد القدرة على الحركة أو على فتح عينيَّ لرؤية من كان بجانبي. ثمّ استنشقتُ رائحتها العطرة الّتي أعرفها منذ صغري.. منذ الأزل.

كانت تضع الدّورق المميّز أمامها حين تجلس تتزّين. وتمرّ لحظات وينتشر في الجوّ عبق تلك الرّائحة.. «لحن الزّمان».. نينا ريجي.

امتلأتْ روحي وفاضت سروراً ومحبة وعرفاناً بالجميل. هي ذي إذن قد اجتازت العقبات ووفت بعهدها، وها هي من وراء الأحجار والمطر والرّيح تمسك بيدي وتؤكّد لي بأنّ حبّها هو الحياة والخلق واللاّنهائي، وأنّي أنا الكون وما سيكون وما لا ينتهي...

صنعتُ ضبابي الخاصّ الكثيف مرّة أخرى وجلستُ في الكرسيّ الوثير أنصتُ إلى موسيقاي باطمئنان. هذا «شوبان» الّذي أدمنته أخيراً، يتراخى في مقاطع عديدة من «بالاد» ه بحيث يكاد قلبي يتوقّف هو الآخر مع بطء ضرباته ورقّتها الفائقة. يتركنا الفنّان أحياناً نظنّ بأنّه من فرط ذوبانه في تشكيل إبداعه، لا يكاد يجد القوّة لضربة خفيفة جداً من البيانو أو لخطّ ملوّن متناهٍ في الصّغر؛ وهو يعلم دوماً أنّ هنالك روحاً أمامه، في المكان أو في الزّمان اللاّمتناهي، تنتظر، بكلّ شوق الدّنيا، هذه اللّمسة الخارقة أو لطخة اللّون تلك.

أمس عادني الطّبيب الجرّاح فرفع الضمادة الأخيرة الّتي كانت تلفّ رأسي، وأكّد لنا بأنّ الجرح البسيط المتبقّي سيندمل خلال أسبوع على الأكثر، وأنّ عليَّ أن أرتاح خلال هذه الفترة. لم تكن توصيته الأخيرة ضرورية لنا، فأنا أزاول نقاهة مريحة بعد خروجي من المستشفى منذ ثمانية أيّام. لا عمل، لا مشاكل، لا أسئلة، لا تطلّعات؛ سوى الأفكار المغلقة، تروح وتجيء، وتروح أحياناً ولا تجيء، أو تجيء أغلب الأحيان ولا تروح. لم أكن حائراً؛ لست حائراً بصورة تامّة؛ أي أنّ دائرة الحيرة عندي لما تزل أطرافها لم تلتقِ؛ بمعنى أنّ ردود الأفعال والنتائج الّتي ثبّتتْ قيمة ما حدث، لم تعطني في المقابل تفسيراً أو إيضاحاً أساسياً لهذا الحدث. ومع

التقويم اللّامادّيّ، يجب الحذر؛ فكلّ البطولات، أحياناً، هواء؛ وقد تأتي اليقظة ولا نجد في راحة اليد غير بذرة سوداء. وأنا لم أفصح لهم عن حقيقة حادث الاصطدام المفتعل ذاك، لشعوري بلا جدوى الأمر أولاً والتقاطاً مني للتقويم الرّوحي الّذي مُنح لي أنا بمفردي ثانياً. ثمّ إنّ أحداً لم يسألني عمّا جرى لي وكيف أمكن لي بمهارتي الشخصيّة أن أحصل على لطمة في الرّأس من حادث اصطدام مبتذل. وجاؤوا، بجواري، يحمدون الله ويشكرونه لخروجي جريحاً غير ميت من كلّ تلك المشابكات. ولن يلبث الأمر أن يُنسى بعد ذلك. ما أثار مشاعري ولا يزال، عدم قدرتي على تحمّل وجود خالي رؤوف معي. لم أقل لهم ذلك ولا قلته له؛ فهمه هو من نظراتي. وحين كنتُ أغاددر المستشفى، في تلك الأمسية الحزينة الباردة، والجميع من حولي، لمحته يتسلّل متخبّطاً بمعطفه الواسع القديم ويبتعد عن جمعنا السّعيد. وهكذا وقعّنا، أنا وهو، صك فراق غير مفهوم البتّة.

ومع عودتي إلى البيت صدر أمر ترقية والدي إلى عضوية محكمة تمييز العراق وجرت عملية تنفّس الصعداء على أوسع نطاق في العائلة. وفي ذلك اليوم المتميّز دخّنتُ سيكارتي الأولى، وبدأتُ عادة صنع ضبابي الشخصيّ في الصالة من الدخّان. إنّ هذه العملية المظلومة من دعاة الصحّة، هي في حقيقتها عملية تغطية من طراز متقدّم؛ فبالإضافة إلى الضباب السّاحر الّذي اكتشفته حديثاً، والّذي ساعدني بعمق على استجلاء أفكاري وتمثّلها، فإنّ الدخّان المهلك هذا، ذا السّمعة السيّئة حقاً، يمنحك ـ باغتيالك عن عمد وإصرار ـ الشّعور اللّذيذ بأنّك تعيش على حافة الخطر.

إلاّ أنّي لم أكن مكترثاً بجدٍّ لمصاعب صحّتي الجسديّة، وما قيل

عن خطورة إصابتي، أخذته على محمل الخفّة والتهكّم؛ فالجسد في ظنّي ـ ولعلّي على خطأ في ذلك ـ هو معبر دقيق للأفكار والأحاسيس ولكنه ليس المهبط أو المنبع؛ والرّوح ـ سجين الجسد ـ هو الّذي يعاني من اضطراب هذا المعبر وسوء تكوينه. وعندي اليوم، إنّ روحي صَهَرتْ معبرها تلك اللّيلة في المقبرة من أجل أن تفلت إلى الجهة الأخرى غير المطروقة؛ غير أنّ المعبر لم يتفتّت، فجاؤوا يلطمون رأسي عسى أن ينتهي كلّ شيء.

قمتُ أضع إحدى قطع «شوبان».. سكيرزو رقم ٢، ثمّ وقفتُ في زاوية الصالة القصوى قرب النّافذة. حشرتُ نفسي بين الجدارين الباردين وأخذتُ أتطلّع إلى نواحي هذه الغرفة الواسعة. كانت طبقات الدخّان كثيفة حقاً، بيضاء في سمرة خفيفة، تبدو وكأنّها متداخلة كالغيوم الممطرة ولكنها في الحقيقة تتلامس وتتحاسس وتتشاعر إن أمكن القول؛ فإذا جعلنا حيطان البيوت على هذه الشّاكلة استطعنا أن ننجز عملاً هندسياً لا سابقة له.. البيت الّذي يحنو على ساكنيه، يبادلهم الحبّ ويشاركهم العواطف. يا لها من فكرة!

أسرعتُ إلى مكتبٍ أضع عليه بعض الأوراق والخرائط، فجلستُ متحمّساً وأمسكتُ بالقلم ثمّ خطّطتُ بعض المنحنيات الملتفة الّتي لا تحوي أيّة خطوط حادة أو منكسرة. أردتُ أن تتّحد الجدران فيما بينها؛ أن تتحاضن وتتماسك بالأيدي لا أن تتخشّب واحداً جنب الآخر. لعلّ هذا التركيب يعطي انطباعاً بما فكّرتُ فيه، لعلّ؛ لكني لم أحسّ بذلك. إنّها رسوم جيّدة، غير قابلة للتنفيذ. هناك خلل عظيم في طبيعة البناء.. كلّ بناء؛ فمادامت الأحجار أحجاراً لا تحسّ ولا تتعاطف، فمن العبث إذن وضع خطّة هندسيّة جميلة تبنى

من هذه الأحجار ويسكنها بشر ذوو مشاعر ومتطلّبات عاطفيّة. كلّ شيء عبث ومفسود منذ البداية.

غير أنّي لا أتتبع خطاً مستقيماً واضحاً في التفكير، وهذا ما يزعجني، فلقد صمّمتُ، يوماً، ألاّ أفكّر بفوضى كما يفعل أغلب النّاس، ليس بسبب كرهي للفوضى أو محبتي للنظام، ولكن بسبب خشيتي من الدخول في حلقة مفرغة، إن لم نقل حلقات مفرغات. أمر مخيف هذه الحلقات المفرغة؛ إنّها استنزاف عقليّ مريع.

كنت ـ خلال عشر معشار الثّانية، وهو الوقت الفاصل بين تلك الضربة وغيابي عن الرّشد ـ فزعاً من هذه الحلقات المفرغة؛ منها ومن نوبات الهذيان. الحلقات هي الّتي كانت تمتصّ أفكاري وتبتلعها وتتركني حيواناً مذهولاً؛ والهذيان تعبٌ شديد لا يُطاق؛ افترسني أياماً وهدّني روحاً وجسداً. ثمّ.. ثمّ نال الجسم أخيراً تلك المحبّة الإلّهيّة بعد لأي، فتراخي كلّ شيء فيه وانبسط وانتشرت العافية والدّفء والألوان في أطرافه، وعادت اللّذة المتوثبة واللّمسات العطوفة والشّذا والعطور.

قيل لي أمس، ولكني أشعر كأنّ القول كان اليوم، بأنّ سيارتي قد أُصلحت وأعيدت إلى البيت. كانت عمّة قادرية، بين تلافيف ضبابي، تتحدّث وتنقّل نظرها المضطرب في أنحاء الصّالة. سرّني أن يكون بإمكاني معاودة الجولان في شوارع بغداد تحت المطر، مثلما كان الأمر تلك الأيام. ثمّ أخبرتني.. أم أنّي شعرتُ فقط ولم يخبرني أحد؟.. بأنّ خالي رؤوف ترك غرفته في ذلك البيت قرب كورنيش الأعظمية واستقرّ في دار العجزة الّتي كان يسعى لمعرفة عنوانها منذ فترة. ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت.

ولبثتْ واقفة في ركن الباب، فابتسمتُ لها. لم يكن الوقت وقت تناول أيّ نوع من أنواع الطعام ولا كنتُ مهيّئاً نفسي لزيارة أحد مهما يكن شأنه ولا حدث لأبي ما نكره، فهو، منذ ترقيته، يتجوّل في الدّار منتفخاً كالديك القصير؛ فماذا حدث لهذه المسكينة فجعلها تقف هكذا تاركة القلق يفترسها على عجل؟

ـ أنا يا بنيّ، أكاد أراك؛ فكيف يمكنك أن تعيش وسط هذا الدخان وأنت النّاقه الّذي خرج من المستشفى قبل أيام؟ يقولون إنّ الهواء النقيّ دواء لك؛ فهل سمعتَ بهذا القول؟ وأنا وأبوك معي، نخشى أن نزعجك. نظنّ دائماً أنّك مستغرق في النّوم. فإذا بك مشغول بالتدخين طول الوقت. ما الّذي جعلك تتغيّر هكذا يا ابني يا هاشم؟ ألعلّها حادثة الاصطدام اللّعينة وإصابة رأسك فيها قد جعلتك.. أعوذ بالله. تدخّن بهذه الطريقة؟ أم أنّ روحك، كما يقولون، تحترق؛ لهفي عليك! وهذه النداءات، كما تعلم، ليس لها انقطاع، وقد غدت ساقاي خيوطاً متراخية من كثرة السّير من المطبخ إلى الهاتف. أنا أجيب عنك يا ابني هاشم لأنّي أعرف مقدار تعبك وضعف جسمك؛ وما كنت لأدخل عليك أصدّع رأسك عمن سأل وعمن خابر، ولكن هذا المدير ألحّ كثيراً. أخجلني والله، ولم أستطع أن أكذب عليه. يبدو لي رجلاً مستقيماً وقع في ورطة..

قاطعتها:

ـ ورطة! كلاّ، قولي شيئاً آخر.

فبهتت وهي تسمعني أكلّمها، ثمّ ضربت كفّاً بكفّ:

ـ كما تشاء يا ابني؛ ولكن أي شيء يمكنني أن أقوله، مادام هو الّذي قال إنّه في ورطة؟

عرفتُ آنذاك أنّ شيئاً ما لا يسير على ما يرام، وكنتُ على حقّ.

سألني وفي صوته اضطراب، ألا أزال أشتغل على مشروع الشركة لبناء منازل للموظفين الصغار فأجبته بالنفي، إذ كنتُ نسيتُ المشروع والبيوت منذ تلك اللّطمة، فقال إنّ من المستحسن إذن أن أنسى كلّ شيء مرّة واحدة، لأنّ العرض الّذي كان في الأصل، شبه اتفاق بين شركتنا وذلك الصديق، قد أُلغي فجأة وأن عليَّ أن أرتاح وألاَّ أشغل ذهني بتلك البيوت ذات المسحة الشّاعرية، لأنّ زمنها لم يحن بعد. فلمّا استوضحته عمّا جرى وما هذه الأخبار الغريبة، صمت فترة وخيّل إليَّ أنّي سمعته يتنهّد:

ـ لا شيء جديداً يا أستاذ هاشم، إنّ أمامك في الحياة الكثير لتتعلمه، ومن ضمنه أن تقبل بسماحة نفس ما لابدّ من قبوله مهما بلغت مرارته. ارتح الآن، وسنلتقي عمّا قريب إن شاء الله ونتحدّث. لا تهتم أبداً، فإنّ هذه الأمور لن تؤثر على مركزك في الشركة؛ فنحن نعرفك جيداً ونعتمد عليك وعلى قابلياتك الهندسية.

أردت أن أذهب لرؤيته حالاً لكنه رفض ذلك وكرّر عليَّ طلبه بأن أرتاح وألاَّ أقلق أبداً، ثمّ أغلق الخطّ.

لم يكن له الحق في ألاَّ يراني؛ ولأنّه فعل ذلك، فهذا يعني أن الأمر أسوأ بكثير مما صرّح به وأنّ لي به صلة أكيدة؛ وكنتُ على صواب في ظنوني هذه المرّة أيضاً.

وحين تحاملتُ على نفسي بعد أيام قليلة وقمت بسياقة السيّارة رغم بعض الدّوار البسيط وذهبتُ إلى الشركة لرؤيته، لم يزد شيئاً ذا أهمّية على ما قاله لي في الهاتف. انزعجتُ في البداية لمحاولته التظاهر بالغموض وإخفاء الحقائق الّتي ما إن تنكشف حتّى تبدو تافهة لا تستحقّ الاهتمام؛ ثمّ تملكني القلق فترة قصيرة وأنا أراه يشير بحركة غبية موضحاً مصدر الأمر كلّه:

ـ قل لي يا سيدي، مباشرة وبوضوح تام، هل لي شخصياً علاقة بهذا الموضوع المشبوه؟

ـ لا أستطيع أن أنفي ذلك أو أن أثبته يا أستاذ هاشم. لا أملك أية دلائل أو براهين في الحالتين. أنا آسف. هكذا هي الأمور هذه الأيام. المهمّ أنّنا لم نخسر شيئاً كبيراً.

بعد ذلك، غارقاً في أشعة الشّمس الدّافئة المتراقصة حولي في شوارع الكرّادة، كنتُ مستخّفاً، طائراً أو أكاد، من بهجة خفيّة تدافعت بشدّة في حنايا نفسي. بهجة الامتلاك النهائي، بهجة الثّقة بالشخص الّذي كنته؛ وكنتُ أدخّن وأستنشق الهواء البارد المضمّخ بروح ربيعية.

قلتُ له قبل انصرافي بأنّي سعيد لأسباب كثيرة أعرفها أنا وحدي، وأنّي أتمنّى له أن يكون مثلي وأن يتشوّف لبناء دور للناس ذات عواطف طيّبة، فكاد يستلقي على كرسيه من شدّة الضحك وهو يهزّ رأسه نافياً ما أقوله له، وفي عينيه حزن دفين.

زاولني الدّوار آن خرجتُ من الشركة، إلاّ أن تعباً بسيطاً أخذ يتسلّل إليَّ وأنا منتشٍ بسياقة السيّارة وبالهواء وبمناظر الشّارع. إنّ هذا التّكامل في الرّوح الّذي وجدته صدفة وعن جدارة، يثقل كاهل جسدي النّاقه، لأنّه يستدعي ـ بالضرورة ـ حماسة حادّة واستجابات غير عادية؛ لذا كان عليَّ أن أقصّر مدة النّقاهة ما أمكن بالتغذية الصحيحة الّتي تعيد له كفاءته وقدراته الماضية بأسرع وقت. حينذاك قفز اسم مطعم «فاروق» أمام بصري، فأوقفتُ السيّارة حذاءه ونزلت. ورغم انشغالي بأمر تلك السيّارة الزّرقاء، في الأفق، الّتي كانت تتبعني مذ غادرتُ الشركة، فإنّ أوّل جالسة في الصالة الكبيرة ذكّرتني بها. بالغتْ عمّة قادرية في وصف أدبها ورقّتها واستعدادها لكلّ

خدمة ومواظبتها على الحضور يومياً على وجه التقريب إلى المستشفى. تلك الطبيبة ذات الأهداف الغامضة، لا تبدو شبيهة بهذه الفتاة المجهولة سوى في قَصَّة الشّعر واستدارة الوجه. كان الازدحام على أشدّه. ورائحة الطعام المعتنى بطبخه تختلط بعطور الجالسين ودخان سكائرهم الأجنبية. انزويتُ في ركن قريب من شبّاك واسع يطلّ على معرض بغداد الدّولي. كنتُ أريد أن أكون مرتاحاً، متوازناً، رائقاً في مزاجي؛ لكن عيوناً غير مرئية ثاقبة النّظرات، بقيتْ تترصدني بعد جلوسي إلى المائدة وإمساكي بقائمة الطعام ثمّ تلفّتي لاستدعاء أحد الخدم. عند ذاك تماهت بين العيون الأخرى وأخفتْ سهامها الناريّة عنّي. كنتُ أحبّ أن أعتقد أنّ ضعف الجسم أحياناً يؤثّر في الحواسّ. حتّى في الحاسّة السّادسة. فمادام هو المعبر والممرّ ومن خلاله تمرق الواردات الدنيوية وتخرج الصادرات الشخصيّة، فلننتظر عجائب الأوهام تأتينا منه كلّ وقت.

أكلتُ جيّداً دون مساعدة من المدير. كان مشغولاً بخدمة زبائن خاصّين جداً، أخفاهم في زاوية معدّة لهذا الغرض، فلم يرني. أشعلتُ سيكارتي وانكفأت عن الصالة، أتطلّع إلى شجيرات على الطريق الفاصل بين المطعم ومعرض بغداد الدّولي. كنتُ شخصاً؛ قدماي راسختان على أرض من صنعي؛ وكنتُ أريد أن أكون فخوراً.

هناك، بعد هذا، ما ينتظرني كي أفعله؛ فالأفعال الأصيلة الّتي كونتني شخصاً، تبقى في ترقّب ملهوف للامتداد والاستمرار. ولن يعني شيئاً «كيفية» وصولي لهذه المرتبة، ولا أن أحداً لم يفهمها ولن يفهمها. كان خالي رؤوف على تماسٍّ بي يسمح بمصارحته، لكني خشيت ضعف وضيق إدراكه وشككتُ في أنّه قد يكون متحجّر

الإيمان خلاف الظّاهر. وحين تحدّث معي ذلك الحديث، عرفتُ كم كنت على صواب.

ثمّ إنّي، مع تلك الطبيبة، لمّحت لها بالخطوط العامّة لصدمة تكويني، فلم تستجب لكلامي. شعرتُ، من نظراتها، أنّها قادرة على إدراك ما أقول، لكنها حزنتْ في اللّحظات الأخيرة ورفستني بطلباتها المادّيّة الرّخيصة.

كنت، الآن، بحاجة إلى غرفتي وإلى موسيقاي وإلى ضبابي الخاصّ؛ إلاّ أنّي لبثت أدخّن بهدوء، ناظراً إلى السّماء الرّائقة. يمكنني، وأنا ثابت القدميْن غير مبالٍ بأحد، أن أواجههم في الوقت الرّاهن. لا يهمّ إن كانوا فهموا أم لا، فتلك مسألة أخرى. ما يهمّ حقاً هو أن يعرفوا عن يقين بأنّي أنا الّذي سأختار. أنا الّذي سأختار وقتما أشاء.

كانت نتفة من الغيم الأبيض البرّاق تتزحلق بلينٍ على صفحة الزّرقة السّماوية الشّاسعة، وكنت أشعر بسعادتي غامرة مع خفقان قلبي المتسارع. كلّ شدائد الأوقات الأخيرة وصدمات الرّوح المعذّب كانت من أجل هذه اللّحظات الإلّهية المتسامية. وجاءني، على حين غرّة، وجه أمّي سناء، ملكة النّهار، منعكساً على زجاج النّافذة، مغطّى بدموع كلؤلؤ مضيء، مشعّاً مع ذلك بفرح طاغٍ لا حدود له. اشتدتْ بي رغبة دافئة للعزلة والانغمار بدثار الموسيقى والضباب الدّخاني الكثيف، فهناك، هناك زماني الشخصيّ، وهناك الشخص الّذي لا يناله الزّمان.

اندهشتْ قليلاً إذ رأتني جالساً في غرفة استقبال قريبات أبي المسنّات في حي «دراغ»، وأنا أدخّن سيكارتي الثّانية. كانت متأنّقة

كعادتها، في فستان ضيّق يبالغ في احتضانه لجسدها الفتيّ، رمادي فاتح تتلاعب عليه ألوان زرقاء وحمراء. وكانت بمفردها، فقمتُ أحيّيها وأسألها عمن كان يجب أن يكون معها، فاعتذرتْ بغمغمة غير مفهومة ثمّ جلستْ تجيب على أسئلة إحدى العجائز الّتي بقيتْ في الدّار ذلك العصر من أجلنا. كانت السّاعة قد جاوزت الرّابعة بقليل من بعد ظهر يوم من أيام مارت، وكنتُ وافقتُ على لقائها ومعها آمال من أوّل اتصال لها معي أجرته بعد أسبوع من عودتي للعمل. خابرتني إلى مكتبي في الشركة وهنّأتني على سلامتي وعلى استرداد صحتي كاملة. ثمّ أخذتْ تتحاور مع الهواء دون أن تقول شيئاً فقطعتُ عليها ذلك وسألتها إن كانت تروم، هي أو غيرها، شيئاً مني فما عليها إلاّ أن تفصح عنه. سكنتْ هنيهة ثمّ قالتْ آمال بأنّها تفكر بلقائي لحديث مهم معي وأنها تقترح عليَّ أن تكون آمال معنا. أبديتُ لها موافقتي حالاً، وحينما برزتْ مشكلة المكان تذكّرتُ منزل قريباتي المسنّات هذا، كأكثر الأماكن ملائمة للقاء، خاصة وأنّهما تعرفان موقعه. تردّدتْ كما يجب أن يكون، كأنّي عرضتُ عليها أن ننام معاً هناك، ثمّ أبدت رضاها بلهجة من يقوم بتضحية من جانبه. لم أتركها وشأنها. تلك أمور تخصّ الماضي، أمّا الآن.. فلا. أسرعتُ أقول لها بوضوح إنّها غير مرغمة أن تأتي إلى هذا المنزل أو غيره، هي أو آمال أو غيرهما، إذ أنّي لا أريد بالأصل أن يحصل مثل هذا اللّقاء. هذه المرّة، كان الإسراع من جانبها فحددتْ السّاعة واليوم ورجتني أن أكون دقيقاً لأنها ستخرج من المستشفى من أجل هذا الموعد. سرّني ذلك. أخرجتْ سيكارة حالما جلستْ وأشعلتها ثمّ كأنّها أرادت أن تسألني عمّا إذا كنتُ أسمح لها بالتدخين، فوجدتني أدخّن سيكارتي الثّانية. كانت متزيّنة بدقّة وفي نظراتها، لا الحدّة الّتي توقعتها، بل نوع من الاضطراب الدّاخلي. قالت:

ـ لم تستطع آمال أن تأتي. لم تدعها أمّها؛ ولكني فهمتُ منها كل ما أرادتْ أن تقوله لك. كيف حالك؟ هل استعدت صحتك تماماً؟ تبدو لي هكذا.

ثم التفتت إلى العجوز تسألها الأسئلة المعتادة بصوت أكثر ارتفاعاً لعلمها بصمم هذه الأخيرة.

آنذاك، بهدوء ولطف تامّين، تسلّلتْ إلى أنفي نفحة رقيقة من العطر الّذي تضعه. كانت منعشة، سحرية، أرجفت قلبي. نينا ريجي.. لحن الزّمان. تسارعتْ أنفاسي بعض الشيء وشعرتُ بنفسي مستسلماً إلى لذّة غريبة اشتعلت، فجأة، في كياني. ماذا تعمل بي هذه التركيبات الكيمياوية؟ ولكنها.. ولكنها..

كانتْ تكرّر عليَّ سؤالها وهي، ببرودة، تحدجني بنظرات حادة. لم أكترث. كانت العجوز تودّ أن تقدّم لنا ما نروم من شاي أو قهوة، ولم أسمعها، لحظة مهاجمة الرّائحة لي، فتبرعتْ هي بالسؤال عني وكرّرته عليَّ ببعض الانزعاج. قامت العجوز وتركتنا لوحدنا مع الأثاث الكئيب. كانت الشّمس تتطفل على الغرفة من نافذتين صغيرتين قذرتين، فترمي بأشعتها الحمراء عبثاً لتنير بعض الأركان.

كنتُ لاأزال مستثار العواطف حين سألتها:

ـ أجئتِ إلى المستشفى؟

رفعت حاجبيها:

ـ ألم يخبروك؟

كنت أشكّ في أنّ هذه الطبيبة اللّعينة تريد أن تخرّب ما يمكنها تخريبه من شؤوني. استمرّت:

ـ عدّة مرّات. لِمَ تسأل الآن؟ كنت فاقداً وعيك طوال الوقت. لقد

تعرّفتُ على خالك رؤوف في الأيام الأخيرة؛ إنّه من أكثر الأشخاص الّذين قابلتهم في حياتي.. ظرفاً وإدراكاً عميقاً وتواضعاً.

لم أكن مصغياً؛ ففي برهات، أخذتُ أقاوم الاستسلام لهذه النّشوة الغامضة اللاّمألوفة الّتي أثارتها رائحتها في كياني كلّه. كانت تمسّني في الصميم؛ وكنتُ، في غمرة هذا الانتشاء، أحسّ بقدوم الظّلمات واليأس والاندحار؛ فمثل كلّ الأمور العظمى في العالم كانت لهذا العطر أوجهه المختلفة وكانت له معانيه المتضاربة.

دخلتْ العجوز تحمل صينية القهوة والشّاي، فبددتْ حرج ذلك الصمت المريب بيننا. تناولنا أقداحنا بسكون وانشغلنا، ثلاثتنا، بما في أيدينا. كانت العجوز تنقل بصرها بيننا دون أن تعرف ما يتوجّب عليها عمله.

سألتها هي عن أقرباء لها بعيدين فاشتبك الحديث بينهما دقائق. كنتُ صامتاً؛ أسترجع ببطء، هدوءَ روحي وألمَّ شتاتي؛ وكنتُ، في نقطة مظلمة عميقة من ذاتي، جزعاً. ما كان لي أن أدع بشراً من نوعها يشهد مصرعي. لا.

كانت تضع ساقاً على ساق، تظهر لي اتساقهما وانسجام لون الجوارب الشفّافة والحذاء الأزرق مع ملبسها، وكان في مجمل ملامحها وجلستها وإمساكها بقدح القهوة، إعلان سمج عن خفايا نفسها.

ـ لن نقضي وقتنا صامتين، أليس كذلك؟ هل توصلتَ أستاذ هاشم، إلى قرار جديد يسرّنا أن نسمعه منك؟

توفّزتُ حالما سمعتُ صوتها، كأنّي أسمعها لأوّل مرّة:

ـ تعنين.. بعد الّذي حدث؟

نظرة استفهام:

ـ ماذا حدث؟ الاصطدام؟ كلّنا معرضون لمثل هذه الحوادث.

ـ حقاً؟ أتظنين؟

ـ ماذا تعني؟

ـ سأصدّق تظاهرك هذا بأنّكِ لا تعرفين؛ ولكن، كيف أمكنك أن تتقبلي عقلياً بأن ينتج عن تصادم تافه إصابة شبه قاتلة، متأتية عن ضربة مقصودة في الرّأس؟

رأيتُ يدها، الممسكة بالقدح، ترتجف قليلاً وعينيها تتسعان:

ـ ماذا تعني؟ لا أفهمك بالضبط. ألم يكن حادث تصادم؟

هززتُ رأسي. مكثتْ تحدّق فيَّ كأنّها مسحورة.

ـ نعم؟ وضّح لي أرجوك.

ـ لا أحبّ التوضيح. كان حادثاً مفتعلاً لإيقافي والاعتداء عليَّ. هذا هو كلّ شيء.

بان عليها ذعر حقيقي فوضعتْ القدح على مائدة صغيرة قربها، ثمّ أخرجتْ ورقة تنظيف من حقيبتها مسحت بها أصابعها. كانت متوجّهة ببصرها نحو الأرض، وصدرها المكشوف أغلبه يرتفع وينخفض بسرعة. خاطبتها:

ـ أرجو ألاَّ يزعجك الخبر؛ فهذه الحوادث قد تحصل لكلّ واحد منا، كما قلت.

رفعت بصرها إليَّ:

ـ أنا.. أنا مصدومة فعلاً، ولأسباب كثيرة. إنّ ما تقوله فظيع بدرجة لا تُحتمل، ولا يمكن السّكوت عنه. وأنت.. أنت إذن في خطر شديد، منذ ذلك اليوم حتّى الآن. في خطر شديد.. أتفهم؟

كنتُ هادئاً؛ فارقني، بعض الشيء، تأثير عطرها على أعصابي، وتعوّدتُ على السكرة المخملية الّتي لفّني بها. كنتُ صافي الذّهن، مستقرّ الرّوح. أراحني أن أكشف لها نوعية البشر الّذين يتعاملون معها في الظلام.

ـ أنا أفهم تمام الفهم، ولكني لا أدرك الأمر على الصورة الّتي تريدينها.

بهتتْ:

ـ أتريد أن تعود تتلاعب بالألفاظ لإخافتي أم أنّك.. إنّك حقاً غير مهتم بما يقع لك؟

ـ مادام ذلك يمنحني كثافة روحية وقيمة خاصّة، فلا بأس.

تراجعتْ في جلستها، مضطربة حقاً؛ ثم اعتدلت فبان علوّ نهديها. كانت في تلك الحالة من الانزعاج الّذي لا محيص عنه؛ وتذكّرتُ بأنّي خمّنت أنّها على غير ما يرام داخلياً. سكنتْ لحظات، تتطلع إليَّ كأنّها تدرسني:

ـ لقد تحدّثتُ طويلاً مع خالك، أتعلم؟ إنّ له معرفة بك أكثر من أي شخص آخر؛ ولقد منحني ثقته لحسن الحظ.

ثمّ، ببطء وثقل:

ـ إنّه، يشهد الله، على حق في كلّ ما قاله عنك رغم.. رغم.. لِمَ لا تنهي الأمر وتطلّقها وتخرج من هذه القضية القذرة كلّها؟

بعد ذلك، أخذتْ تهتف بصوت لا يمكن اعتباره خافتاً:

ـ لِمَ؟ قل لي.. لِمَ ذلك.. لِمَ؟

كانت عيناها، الموجهتان نحوي، هائجتين تنفثان شرراً؛ وخيّل إليَّ كأنّي أسمع أنفاسها تتردّد في صدرها. لم يكن بوسعي إجابتها، ولعلّها شعرت بذلك.

ـ يالله.. كم أنا مضطربة!

والتفتتْ إلى العجوز الجالسة بجمود أمامها ورفعت صوتها:

ـ خالة هاشمية، كأس ماء من فضلك.

كانت العجوز تنصت دون أن تسمع شيئاً كثيراً، غير أنّها سمعت طلب الطبيبة الأخير فقامت حالاً تدبّ ببطء نحو باب الغرفة:

ـ نعم. طبعاً، دكتورة. دقيقة واحدة.

وضعتْ هي راحة يدها اليمنى على عينيها:

ـ آسفة جداً أستاذ هاشم. أنا أعرف بأنّك لا تحبّ مثل هذه الأسئلة المستغلقة ولا مناظر.. عدم السيطرة على النّفس. آسفة.. يالله.. كم أنا متوتّرة!

ثمّ تناولت حقيبتها وفتحتها واستدارت بسكون تنظر إلى الباب والحقيبة في حجرها.

كنتُ في مثل جمود الصخر، أتساءل في داخلي عمّا إذا كانت تفتعل هذه التعبيرات، فيكون الأمر عندئذٍ طبيعياً؛ أم أنّها فقدتْ، لسببٍ ما، أعصابها حقاً، فيكون الأمر عند ذاك مستعصياً يدعو للقلق؟

ـ أنا مستعدّ لإجابتك دكتورة سلمى، متى ما أردتِ جواباً. إنّ لديّ الكثير لأقوله لك ولأي إنسان آخر يملك قابلية النّظر إلى داخل الأشياء.

ـ حقاً؟ وهل تعتقد أنّ لديَّ الوقت والأعصاب لأنظر إلى.. داخل الأشياء، كما تقول؟

دخلت العجوز تحمل قدح ماء موضوعاً في صينية صغيرة، قدّمته لها بأبهة فتناولته وأخرجت حبّة خضراء من حقيبتها فابتعلتها شاربة قدح الماء كلّه.

ـ بالعافية، دكتورة.

ـ شكراً خالة هاشمية. اعذريني، أتعبتك.

فانحنتْ العجوز برقّة وعادت تدبّ خارجة من الغرفة. كان المكان حولنا كامداً، يقترب من الظّلمة. لم تعد أشعة الشمس تُرى؛ وكان الضوء محض انعكاسات مجهولة المصدر. رأيتها تشعل سيكارة وتنظر في ساعتها ثمّ تعتدل في جلستها على المقعد. كان جسمها متناسقاً بوضوح، مليئاً ذا منحنيات. ضايقني أن أفكّر بأنّها قد ترتاح لإعجاب الرّجال بها. قطعتِ الصمت:

ـ يجب أن نستغلّ الوقت الّذي يمرّ بسرعة، ونصل إلى نقطة نلتقي فيها أو.. أو نختلف. لابدّ لي أن أذكر لك أولاً بعض ما قالته لي آمال وطلبت أن أنقله لك.

لحظة:

ـ إنّها مستعدة لإعادة كافّة الهدايا الّتي قدّمتها لها، كلّها.. دون استثناء، إذا وافقتَ أن..

سكنتُ برهة. خطرتْ لي في لمحة خاطفة تفاصيل تلك الهدايا. كم كنتُ عديم الاكتراث بمالي، ولا أزال!

وهو الآن لا يمثّل لي أيّ شيء؛ إنّه وهم السّلطة عند النّاس، وهو عندي وهم الوهم.

ـ هذه خطوة كريمة من آمال، ولكن في الاتجاه الخطأ. شيء مؤسف.

ـ عرفتُ جوابك مقدماً وقلته لها؛ إلاّ أنّ تلك المسكينة..

ـ أرجوك. لا أحبّ أن تصفيها هكذا. لا علاقة لها بأيّ شيء. أبداً. لا تظلمي أحد لتفسّري أموراً في غاية الغموض.

ـ حسناً، حسناً؛ لن نظلمها. هل أفهم من ذلك أنّك اتّخذتَ قراراً جديداً؟

انتبهتُ إلى أنّ العجوز لم تعد، فقمتُ وأضأتُ الغرفة. رجعتُ إلى مكاني. تقدّمتْ في جلستها وهي تمسك سيكارتها مصفوفة الرّكبتين، تضع ذراعها عليهما. كانت عيناها واسعتين مدوّرتين صافيتين تماماً، يحيطهما الكحل بدوائر عجيبة تجعلهما تتفتحان أكثر وتعكسان أضواء غير مرئية.

ـ لا أعرف بماذا تفكّرين، إلاّ أنّي..

قاطعتني بحدّة ولكن بلطف:

ـ أريد أن أنهي هذه القضية الشّائكة؛ خاصّة بعد التعقيد الأخير الّذي حصل لك.

ـ بودّي أنا أن أتحدّث معك أولاً؛ يهمّني أن أكلّمك عن شأن معين. لم تدعيني أتحدّث في تلك المرّة السّابقة.

ـ لعلّي كنتُ مخطئة. لقد تغيّرت الظروف الآن؛ وأنا مثل خالك رؤوف..

ـ ما دخل خالي معنا؟

ـ ألم أقل لك إنّنا تحدّثنا عنك وتناقشنا طويلاً؟

ـ ما معنى هذا؟

ـ لا تتوجّس يا أستاذ هاشم. كنا أكثر تفهماً لك. سأحكي لك كلّ شيء بعد أن أسمع منك.

تغلبتُ بسرعة على القلق الّذي داهمني وأنا أنصتُ إليها؛ إلاّ أنّي بقيتُ غير قادر على معاودة الحديث الّذي بدأته. كنتُ أنظر إليها من مكان آخر، ولعلّها لمحت تبدلاً في هيأتي.

ـ دعني أكرّر عليك، لا تقلق. تكلّم بما تشاء. من المهمّ لك ولنا

أن تتكلّم.. وبإفاضة. هذا وقتك فلا تضيّعه يا هاشم. دعنا نتفاهم ونتفق ولو مرّة واحدة في حياتنا.

ـ لستُ قلقاً، لستُ قلقاً.

كنتُ أحبّ، آنذاك، الاستماع إلى موسيقاي؛ كانت ستشدّني إلى أفكاري وتمنحني الكلمات اللاّزمة؛ ولن يعوّض عنها أيّ شيء في الكون، حتّى موسيقى هذه النّظرات المتلاينة.. لن تنفع معي. إنّها تميل بي عن أفكاري ورؤاي؛ ولكني سأتماسك وأشدّ نفسي، فهذا هو امتحاني الأوّل العسير. سأوجز ملحمتي مع ذلك، لأنّها ليست لكلّ البشر؛ ولن أمنح هذه المرأة إلاّ القليل القليل من الحكمة.

ـ اسمعي سلمى، دكتورة سلمى، سأحدّثك بصدق عمّا جرى لي. لا أدري لِمَ أفعل ذلك، ولكنني سأحدّثك بصدق تامّ. إنّما، أرجوك، لا تأخذي أقوالي كأنّها واجبة الردّ أو المناقشة.. أو المماحكة. أنا أتحدّث إليك كأنّ هناك حاجة لذلك؛ ولا أدري إن كنتُ على حقّ أم لا.

كانت منتبهة ببعض المبالغة. أخرجتُ علبة سكائري وتناولت منها واحدة ثمّ قدّمتُ لها أخرى فأخذتها. أشعلنا سيكارتينا، ومرّت بيننا لحظات سكون.

ـ هل تقرأين، بالصدفة، كتب الفلسفة دكتورة سلمى؟

ابتسمتْ مجاملةً وهزّت رأسها بالنفي.

ـ ولا أنا، لسوء الحظ؛ وإلاّ لكنتُ قادراً على استبطان.. وربّما تحليل الأمور وعرضها كما يجب. تعرفين، في مسائل الرّوح هذه، أو اختاري لها أيّ اسم تشائين، لا يفيدنا الطبّ في شيء كثير. ولا الهندسة بالطبع.

كنتُ مرتاحاً وأنا أبادلها النّظر وأرى ملامحها تنبسط وتزايلها

علامات التوتّر. بدت أنيسةً، صدوقة. كنتُ مدفوعاً للكلام بهاجس مقلق، متردّداً بعض الشيء دون جدوى؛ وحين بدأتُ حديثي بعد ذلك متعثّراً، تملّكتني الحيرة وهربتْ مني الكمات، ثمّ المعاني. أحسستُ بأنّي متروك للعدم، أحاوره وأتحدّث عنه. سكتُ لحظات؛ لم أكن خائفاً قدر شعوري بأنّي لا أملك شيئاً كثيراً أفضي به إليها. لكنّها، بترقبها الغريب، ولهفتها، سهّلتْ عليَّ العودة للسرد؛ وبدا، بعد وقت وجيز، وكأنّي أكشف لها عن أمور خطيرة لم تمرّ على إنسان آخر من قبل. حكيتُ لها ما اعتبرته حدث لي. محوتُ الأفكار وأغلب العواطف والهواجس، وأبقيتُ على جلّ الأحداث؛ وكنتُ في ذلك على حقّ. فالبشر يترقّبون ويتابعون ما يحدث وما يتغيّر، لأنّ ذلك هو زمانهم؛ أمّا ما لا يحدث وما قد يكون أساساً لكلّ شيء، فإنّهم يزورّون عنه؛ ومن هنا يبدأ الزّلل، ثمّ المأساة.

كنتُ أتحدّث وكانت أمامي؛ صورتها تشحب وتتباعد حيناً وتختفي حيناً آخر؛ إلاّ أنها بقيتْ متألّقة في إنصاتها واستغراقها الكامل.

ثمّ إنّي توقّفتُ فجأة حين فتحتِ الباب عجوزنا الصمّاء، وأخذتْ تتساءل بعينيها عن شيء مجهول. إذ ذاك أدركتُ أنّي مصمّم، في دخيلتي، على أمر غامض صعب بشأن هذه الشّابة الّتي أملك عليها حواسّها، مادمتُ غير مهتمّ إلاّ بأن أحدّثها هي فقط من دون بقية مخلوقات الله. أشارت إلى العجوز بأن تمضي فلا شيء نطلبه منها، فانسحبتْ هذه بَدَعةٍ وهي تنحني برأسها.

ـ ذلك الفجر، بعد عودتي إلى البيت، سقطتُ مريضاً بحمّى شديدة ألزمتني الفراش أكثر من أسبوعين. لم يسل عني أحد خلال هذه الفترة، ولم أسل عن أحد حين شفيت وخرجتُ للعمل. ومضت

الأيام كما يقولون، وصار الّذي صار، ولما يزل لم ينتهِ بعد. هذا هو كلّ شيء تقريباً.

وسكتُ واستمرّت نظراتنا، فترة، تلتقي وتفترق ثمّ تعاود الالتقاء؛ والصمت، صمتنا الخاصّ جدّاً، يحتضن العالم بحنوّ. خفضتْ عينيها نحو الأرض لحظة، أمسكتْ بعدها بحقيبة يدها فأخرجتْ منها علبة سكائرها وأشعلت لنفسها سيكارة نفثت دخانها ثمّ رجعت ببصرها تدفنه تحت قدميها. ضايقني خاطر بأنّها قد تعتقد أنّي أنتظر منها أن تستجيب لما قصصته عليها أو أن تفكّر في أمور أخرى لا أستطيع التكهّن بها، وقد لا تكون مستحبّة أو..

ـ أنا سعيدة حقاً أستاذ هاشم، لأنّك كشفتَ عن أزمتك الشخصية بكلّ إخلاص، بكلّ صدق. أشعر، الآن، بأنّ من الممكن جداً أن نتصارح.. أعني أن نتفاهم على أساس صحيح.

ما لبث عامل الضّيق مما قد تفكّر فيه، يخزني في الجنب بإصرار:

ـ نعم.

ـ ومع إدراكي، حقيقة، لغموض الوضع الّذي.. الّذي انسقتَ إليه دون إرادتك، فأنا أجد أنّه وضع ينتهي.. أعني قد يمكن أن ينتهي بخير ولصالح الجميع. ألا ترى ذلك؟ هل تسمح لي أن أفسّر ما أقصد؟

ـ نعم.

ـ هذا حسن. أنت تعلم أستاذ هاشم، أقصد أنّك عشتَ تجربتك تلك وأنت، كيف أقول، غير... أعني لا إرادة لك فيها. صحيح؟ ومهما يكن معنى هذا الشيء، أعني هذا الموضوع، أقصد هذا

الحادث، فإنّه بشكل ما.. نحن متّفقان.. منعك من حضور حفل زواجك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

مكثتُ أنظر إليها بدهشة، غير فاهم سبب اضطرابها وتلعثمها في الكلام. لم أجبها.

ـ أليس كذلك؟

ـ لا أدري.

ـ لماذا؟ لماذا؟ ولكنه أمر واضح جداً، أليس كذلك؟ انظر أستاذ هاشم، انظر إليَّ.

كانت مستديرة نحوي، تضمّ ساقيها بقوّة، وتشير بذراعيها لتأكيد معاني كلامها؛ وكان جبينها أبيض ناصعاً وكذلك رقبتها وجيدها المكشوف. لم أستطع منع نفسي من خطف نظرة إلى ملتقى نهديها العاليين.

ـ أنا امرأة صريحة ومستقيمة في تفكيرها، وأنا معجبة بكلّ من يكون صريحاً ومستقيماً في تفكيره؛ وسواء اتّفقتَ معي أم لا فأنا أحترم رأيك وحقك في أن تختلف. إنّما هناك أمور بديهية، أعني لا تحتاج إلى مناقشة، وإلاّ لما انتهينا إلى أية نتيجة. مثلاً، أضرب لك مثلاً.

أطفأت سيكارتها ثمّ وضعتْ إحدى أناملها الملوّنة على شفتيها الحمراوين كأنّها تفكّر في صياغة كلامها:

ـ أنت لم تحضر إلى حفلة الزّواج. كنتَ.. هناك.. في المقبرة. حسناً؛ لم يحصل الأمر بإرادتك. أعرف ذلك. لا تعليق لي، إنّما.. وجودك هناك منعك من المجيء إلى الحفل. أليس كذلك؟ أأنا على خطأ؟ حسناً. لا تجب. لا تجب. أنا أريد أن.. أعني، أن أتماشى مع منطق هذه الأمور العجيبة.. العفو.. هذه الأمور فقط، لا داعي

لوصفها. وهذا المنطق يشير إلى معناه هو.. لا زواج، أليس كذلك؟ كلاّ. كلاّ. لا تجب. لا زواج. بعد ذلك، يمكن أن نتساءل.. ماذا إذن؟ أأنا على صواب؟ هل تسمح لي أن أكمل سلسلة منطق الأمور هذه؟ إنّ النتيجة هي بكلّ بساطة فسخ الزّواج.. أي الطّلاق. هذا هو منطق الأمور الّتي جرت لك دون إرادتك، وهو ما أتفق معك عليه وما يحلّ المشكلة من أساسها.

ـ أنا لم أتّفق معكِ على أي شيء.

ـ لم أقصد أنّنا اتّفقنا. لم أقصد هذا. قصدتُ فقط أنّ البديهيات تشير إلى هذه النتيجة الّتي هي منطقية وأنت مثلي مع المنطق.

ـ أيّ منطق؟

ـ منطق الأمور هذه؛ أمورك.. أمورك الغريبة هذه. ألا ترى؟

ـ أبداً.

كانت عيناها متعبتين مظلّلتين بظلال الحيرة وعدم التصديق واليأس. تنهدتْ تنهيدة طويلة وترامت في جلستها إلى الوراء، رافعة رأسها إلى الأعلى. برز نهداها الكبيران بقوّة، وخطر لي أنّها ليست بحاجة لمثل هذه الحركات لتعلن أنّها لا تفهم شيئاً.

قامتْ من مكانها فجأة دون أن تنظر إليَّ وسارت بخفّة وليونة نحو باب الغرفة. كانت مربوعة، مليئة الجسد. التفتت قبل أن تخرج وقالت:

ـ سأشرب كأس ماء. أتريد؟

بصوت دافئ، غنج، في غير وقته.

بقيتُ أتأمّل الباب الّذي اختفت وراءه. لقد اعتقدتُ أنّنا تعاهدنا منذ البداية ألاّ مناقشة ولا تحليل أو تسويغ لأيّ شيء؛ ولكنها..

هاهي ذي تترك غريزة التعالم تسيطر عليها، وصارت تسعى لكي تفيد، بوسائل غير مقبولة، من قضايا متعالية لا علاقة لمشكلتنا بها. أيجب أن يخيب ظنّي بها؟ عادت بمفردها تحمل كأس ماء، فاقتربتْ مني. تنسّمتُ «لحن الزّمان» تهبّ منها مرّة أخرى، وتحمل نفس السحر المبطّن بالأسرار. رفعتُ نظري إليها؛ كانت تبتسم برقّة ابتسامة خفيفة لم أفهم معناها.. إن كان لها معنى. سألتها:

ـ أنتِ تتعطّرين بهذه الرّائحة..

ثمّ تناولتُ الكأس الّذي كنتُ بحاجة إليه.

ـ طبعاً أنا؛ ماذا تقصد؟

ـ فعلاً. أعني.. منذ متى؟

ـ لا أتذكّر. لا أتذكّر.

وجلسنا، وعادت تتحدّث مع ابتسامات مصنوعة لم تكن تخفي اضطرابها واشتداد توتّرها. كانت تفكّر بصهر المتعالي ومزجه مع ما كان يشغلنا من أمور تافهة، لتخرج من ذلك بتحقيق هدفها المادّي السّقيم حقاً. «الحادث» هو نبوءة؛ أو لنقل إنّه أمر من الأوامر العليا الّتي تفوق مداركنا، ملخّصه أنّ عليك ألاّ تتزوّج هذه الفتاة آمال. هذا هو كلّ شيء؛ ومعناه واضح وضوح الشّمس؛ تطيع هذا الأمر وتطلّقها. هذا هو كلّ شيء. لماذا لا ترى ذلك؟

في البداية كانت تكرّر.. لماذا لا ترى كذا وكذا؛ ثمّ أخذتْ تهتف بعد قليل.. لماذا لا تدرك كذا وكذا وهو ما أقلقني وأثار انزعاجي. ثمّ صارت بعد فترة تصرخ في وجهي.. لماذا تتعامى؟ لماذا تتغابى؟ لماذا لا تفهم هذه الأمور البسيطة؟

حينئذٍ اضطررتُ إلى إسكاتها بملاحظة قلتها لها بصوت عالي النّبرة:

ـ انتبهي، دكتورة سلمى؛ لا تفقدي السّيطرة على أعصابك مرّة أخرى.

فهدأتْ خلال لحظات والتمّتْ على نفسها في زاوية من الأريكة.. ولم يخدعني مظهر التراجع الأنثوي هذا، فبقيتُ متوجّساً.

ـ أنا لم أفقد السيطرة على نفسي يا أستاذ هاشم، ولكنك.. أنت تثير حتّى الصخر، حتّى الصّخر؛ وأنا.. أنا هادئة تماماً.. أقول لك إنّ خالك رؤوف.. آه.. ليته معي الآن، إنّه أحسن من عرفك وعرف أيّ نوع من البشر أنت.

ـ أنا أعلم بخالي منك وبآرائه وحكاياته الّتي لا تستند إلى أي واقع أو حقيقة. بماذا حدّثك على كلّ حال؟ بماذا تحدّثتما عني؟

سكنتْ في زاويتها، تتطلع إليَّ بانزعاج واضح؛ ثمّ لوت شفتها السّفلى ليَّة ازدراء وابتعدت بنظرها عني:

ـ أنت تكلمني كأنّنا صرنا عدوّيْن لك.. أنا وخالك. أمر غريب.. آخر.

ـ بماذا تحدّثتما عني؟

ـ لم نكن، كلانا، نحمل أي سوء عنك. خالك، كما تقول، تعرفه أحسن مني، وأنت أحبّ النّاس إليه، وأنا..

ابتسمتْ مرّة أخرى تلك الابتسامة الملغزة الّتي تتخافى أوجه المعاني فيها بين المرارة والانكسار وبين الصّفاء الصّافي. والمودّة اللاّنهائية.

ـ وأنا.. من أنا؛ حتّى خالك أدرك أنّي لا أستطيع أن أؤذيك. رآني مرّة وأنا..

قطعتْ جملتها على نفسها، ثمّ نظرتْ إلى ساعتها فبدت الدّهشة عليها وهبّتْ واقفة بعجلة، تعدّل من شأن ملبسها:

ـ يا لله! ما أسرع مرور الوقت اللّعين هذا!

ورأتني:

ـ ونحن.. لا فائدة منا، أليس كذلك؟ أعني، هل تعتقد أنّ حديثنا هذا قد يثمر شيئاً مفيداً لأحد؟

ـ نعم. لماذا لا نحتمي بالصبر.. مرّة؟

ـ أتعتقد؟ أتعتقد ذلك حقيقة؟

سألتها:

ـ هل كنتِ تتعطرين بعطرك هذا.. «لحن الزّمان».. في زياراتك للمستشفى؟

ـ ما هذا؟

ـ.. ورآك خالي، تمسكين بيدي وأنا غائب عن الوعي فوثق بك وأفضى إليك بأحاديث خاصّة جداً عني.. وعن.. وعنها.

ـ عنها!؟ آه.. تقصد والدتك؟ نعم، هذا صحيح.

ثمّ تنهّدت كأنّ ثقلاً رفع عن صدرها وعادت تجلس ثانية في مكانها النّائي.

ـ لا تظنّ سوءاً بأحد. سأظلّ أكرّر عليك هذا الكلام. لا أحد منا لا يريد الخير لك. لا أحد. بالعكس، بالعكس.

ـ لا أحد منكم يفهم، ومن هنا مصدر الشرور كلّها. اسمحي لي.. أنتِ منذ ساعتين ترفعين صوتك بمنطق مفلوج مألوف لك بالعادة، أنتِ وصحبك ومن جملتهم خالي العزيز؛ هذر وأسئلة سخيفة عن العلّة والمعلول والنّتائج والتتمات.. إلخ، دون أن يخطر لك أو للبلداء من حولك ومن ضمنهم للأسف خالي العزيز، أنّ الشخص ذا النّزوع، الشخص الّذي تكوّن بعد اتحاده بالمتعالي، الشخص الّذي نُودي فلبّى النّداء، ذلك الشخص هو ذو طبيعة

مختلفة، طبيعة ثانية، لأنّه مرتبط روحاً وجسداً بحقائق أخرى؛ وهو أولاً وآخراً، لا علاقة له بمنطقك ونتائجك ومعادلاتك. إنّه ينبني ويعلو، كياناً فريداً لا وصف له. أتفهمين؟ أيمكن لك أن تفهمي؟ أنتِ.. أنا أحدّثك، أحدّثك هكذا، لأنّك بصدفة خرقاء تعرفينها، تسلّلتِ إلى موضوع حياتي وأفسدتِ عليّ بغلاظةٍ أصالته ومعناه وبهاءه. اللّعنة. لن أغفر لك ذلك.

كان وجهها، وهي تنصت إليَّ، أبيض، شاحباً مثل وجوه الموتى؛ وألوان الزّينة في خديها وشفتيها تحوّلت إلى كتل فاقعة منفصلة عن ملامحها. خُيّل إليّ أنّها ترتجف بشدّة، وحين تكلّمت تقطّعتْ أوصال جملها:

ـ أنا.. لا أفهمك. أبداً.. لن أفهمك. ما هذا الّذي تقوله؟ ولماذا تكلّمني بهذه اللّهجة المهينة؟ لماذا؟ مع ذلك، مع ذلك؛ يجب أن.. أن أشرح لك قسماً من.. من.. يالله!

أخفت وجهها بين يديها ودفنته في حجرها؛ وحين رفعته بعد هنيهات كانت عيناها مبلّلتي الأطراف يائستين:

ـ يجب أن أبيّن لك ما أعتقده.. ما نعتقده. اسمع مني. دعني أتكلّم أرجوك. يالله! ما دخلي أنا بكلّ هذه المشاكل؟ أنت تعرّض حياتك للخطر. أفهم هذا جيّداً؛ وأنت تفعله عن عمد. لا تقاطعني.

كانت تصرخ كأنّي سأهاجمها.

ـ أنت.. لا تقاطعني ودعني أكمل حديثي. أنت في مثل موقف.. نعم.. في مثل موقف والدتك. لا تقاطعني. لديَّ.. سمعتُ ذلك من خالك. إنّه على حق. هو متأكّد. كانت.. نعم.. أنت لا تعلم بهذا، تغيّرت منذ أن ولدتك. تغيّرت وتركّزت حياتها كلّها فيك. لم تعد تريد زوجها. صارت تحسب نفسها.. نعم..

أقولها لك، وهو صحيح.. صارت تحسب نفسها محرّمة على البشر. نعم. لا تنكر، لأنّك لا تعلم. كانت.. حطّمت حياتها الزّوجية. حطّمتها هي. بذل خالك جهده معها فلم يفلح. كان يعلم أنّها.. أنّها ضعيفة الأعصاب.. ألم يخبرك؟ لكنه لم يتصوّر أنّها قد تصل إلى هذا الحدّ. لم يعد يهمّها أن تتحطّم حياتها الزّوجية، لم يعد يهمّها أن تدمّر نفسها. لم يعد يهمّها أي شيء، مادمتَ أنت معها. وهكذا.. هكذا أنت الآن. أنت تدمّر حياتك، ولا يهمّك ذلك. أنت تعلم بأنّهم هناك. يترصّدون لك ويريدون التخلّص منك بأيّ ثمن. يقتلونك. يمحونك من وجه الأرض.. وأنت غير مهتمّ.. أنت غير مهتمّ.

كنتُ، لحسن الحظّ، لاأزال أحتفظ بهدوئي مستعيناً بمشاعر الرّثاء والشّفقة الّتي كانت تساورني نحوها:

ـ أنا مهتمّ فقط بحديثك المسموم عن والدتي. إنّه نتيجة أكاذيب ذلك الخال المجذوب. كان يكرهها في قلبه ويحسدها لأنّها ورثت ثروة طائلة من والدتها ولم يرث هو شيئاً. بقي يلاحقها طَوال حياتها. أنا أكرهه. إنّه يشبه والدي. لقد صيَّرا من حياتها جحيماً.. تلك المسكينة البريئة. ثمّ قتلها زوجها آخر الأمر.

ـ كلاّ. كلاّ. لم يقتلها أحد. كانت مريضة؛ وأنت مثلها. أنت مثلها.

ـ أنا أيضاً؟ لماذا...

ثمّ توقفتُ عن الكلام. كانت، في زاوية من الأريكة، منكمشة مثل قطّة خائفة، تعبث بحقيبتها وتنظر إليَّ بعينين مضطربتين وهي تعضّ على شفتها السّفلى باستمرار:

ـ أنتِ في حال سيئة، دكتورة سلمى، لماذا؟ ألسنا نحاول أن

نتناقش بهدوء وبشكل صحيح؟ ربّما، أفلت الزّمام منا قليلاً، ولكن ذلك لا يقتضي أن ننهار عصبياً؛ ألستُ على حق؟

لم تجب. استدارت عني بنظرها وأخفت وجهها براحتيها. كانت أصابعها طويلة نحيلة مصبوغة الأظافر، وكنتُ قد نسيتُ نفسي وغضبي من أقوالها وأخذتُ أقاوم عاطفة معلونة بالحنوّ عليها. كانت آلامها، بالفعل، مجانية من كلّ الجوانب.

ـ نعم. نعم. لي كلمة معك يا أستاذ هاشم. أنا لا أريد.. لا أحبّ هذه الملاسنات الحادة بيننا.

كانت هادئة، هي الأخرى، يثقل الحزن ملامح وجهها:

ـ أنا، كما تعلم، لا دخل لي حقيقياً في موضوعك أنت وآمال، سوى أنّي تصوّرتُ في نفسي القدرة على حلّ المشكل، وإذا بي أقع في مشكل آخر. الآن، وصلتُ، أنت معي في ذلك، إلى اعتقاد بأنّنا.. بأنكم لن تتفاهموا على أيّ شيء؛ وبأنّك، مع أفكارك هذه، تسير بسرعة نحو الكارثة. لقد قلتها لك؛ وأنا..

أخرجتْ منديلاً أبيض صغيراً من حقيبتها ومسحتْ به طرف فمها وعينها اليمنى:

ـ أنا أحسّ بنفسي مضطربة جداً وحائرة؛ ولكني.. ولكني. ثمّ قامت، لدهشتي، من مكانها بتثاقل.

ـ لقد صممتُ أن أترك كلّ شيء لمصيره الآلي المحتوم. ليفعلوا هم بدوني ما يشاؤون. لن أتدخّل بينكم، مطلقاً. وهذه أفكارك.. إنّي، في الواقع، لم أفهم منها شيئاً؛ لا شيء على الإطلاق. غير إنّي أحسّ بأنّك مسكون ومأخوذ بها بشكل غير طبيعي. وأنا أعتقد أنّ حياتك مهدّدة بخطر عظيم، خطر يأتيها من مستويين.. مستوى أولئك القوم الّذين حدّثتك عنهم والّذين جرّبوا معك بعض ما

يتقنون، وأنت تعرفه جيّداً؛ ومستوى ذلك الشخص الّذي سميته أنت.. ذا النّزوع. خطر عظيم يهاجمك، لا سمح الله، من موضعين. أمّا عني، فلقد كشفتُ نفسي للأسف بما فيه الكفاية، وتلقّيتُ عقابي الصّارم بكلماتك تلك الّتي لن أنساها ما حييت.

سارت نحو الباب ببطء، فقمتُ وتقدّمت خطوة نحوها.. أشارتْ لي ألاّ أقترب منها.

ـ دعني أنصرف، أرجوك. لا شأن لك بي. لقد أتعبتني بشدّة خلال هذه الفترة القصيرة الماضية.

فتحت باب الغرفة. كانت عيناها تترقرقان.

ـ لا تظنني بالغتُ في أي شيء قلته لك. لن يتركوك بسلام كن واثقاً من ذلك. وإذا أردتَ كلمة أخيرة مخلصة مني.. اعتنِ بحياتك وحافظ عليها.. فأنت لا تملك غيرها.

ثمّ خرجتْ، وسمعتُ خطواتها السّريعة وهي تتجه نحو الباب الخارجي. لبثتُ بضع دقائق بعدها واقفاً في مكاني، ثمّ ذهبتُ أفتّش عن قريبتي الصمّاء في أنحاء الدّار، فعثرت عليها تصلّي في إحدى الغرف. انتظرتها حتّى أنهت صلاتها فشكرتها لحسن ضيافتها وودعتها ونقلتُ لها سلام سلمى وشكرها ثمّ انصرفت. لم أسع أنا شخصياً لمقابلة مثل هذه على كل حال. أرادوها فكانت لهم، وأنا أشعر بأنّي لستُ أسوأ حالاً مما كنتُ عليه. لقد تقلبتْ بنا الأحاديث مثلما يتقلّب موج البحر الهائج؛ ولا أدري، في الحقيقة، كيف استطعتُ أن أحافظ، ولاأزال، على هدوء أعصابي رغم كثرة الستائر الّتي أُزيحت في هذه المقابلة. كانت السّاعة قد جاوزت الثّامنة بقليل، واللّيل هادئاً رطباً. اتجهتُ بسيارتي إلى طريق خلف «حي دراغ» وانتهيتُ إلى شارع ١٤ تموز.

لم أحسّ برغبة في الذهاب إلى أيّ مكان. أردتُ أن أخلو بنفسي في مكان لم أزره قبلاً في حياتي؛ ولم يكن سهلاً عليَّ أن أفكّر بمقابلة شخص أعرفه. كنتُ، على وجه التّقريب، مستوحشاً من ذات نفسي. ولعل هذا الهواء الّذي يحمل على جناحه نفحة ربيعية هو الّذي أثار فيَّ هذه النّزعة الانعزالية. أم لعلّها تلك الكلمات الرّجيمة الّتي تفوّهت بها سلمى عن أمّي سناء. تنقل عن رجل مسنّ، دخل دار العجزة برغبته، ما يتذكّر من أحداث وقعت قبل أكثر من عشرين سنة وتحليله لها! وهي متأكّدة أنّه متأكّد ممّا يقول! أيّ ضجيج جنونيّ هذا، فارغ وبلا معنى!

وكان انطلاقي، أشقّ الظّلام، بسرعة تزيد على المائة كيلومتر في الساعة، يبعث فيَّ راحة وخفة وتوتراً محبّباً؛ إنّه نوع، غير مجدٍ، من أنواع التحرّر المكاني. أو هو، ربّما، تسريع لدماء الزّمان.. لا معنى له أيضاً. كنتُ منزعجاً؛ كنتُ منزعجاً. لا أريد التفكير بشيء وأريد التفكير بكلّ شيء. لا حل، أعتقد، في اعتبار الأمور جميعها باطلة وكاذبة، فلا شيء ذا صلابة ينتج عن ذلك. وأنا، في خضمّ هذا الدّوران حولي، بحاجة لمن يمسكني وأمسكه.

كانت مصابيح السيّارة تلقي ببقعتين شاحبتين تركضان أمامي بهلع، وكنتُ وسط ظلمتين أو أكثر، ضائعاً خالياً من أيّ هدف. اجتزت شوارع عديدة مزدحمة ثمّ خرجتُ إلى ضواحي بغداد الهادئة. لم أتوقف. أحسستُ بغموض بأنّني قد أستفيد من انطلاق السيّارة لتحريك أفكاري والوصول بها إلى منطقة آمنة أو ما يشبه ذلك؛ غير أنّي لم أكن مستعدّاً لاستيعاب ما أريد أن أفهمه. هنالك انغلاق أو حبسة في مكان ما من عقلي، تمنع جريان أفكاري بشكل طبيعي. ذلك ما كان يزعجني؛ ذلك بالتأكيد ما كان يزيد مع الوقت في

إزعاجي. في أوّليّات العلوم، حسب علمي، يجري وضع هدف ثمّ يخطّط لبلوغه، نظرياً وبالتجربة أو بالتجربة والخيال. أنا لستُ عالماً، ولا غاية لي واضحة. أنا، فقط، شخص متشخّص عن طريق تجربة مرفوضة وغير مألوفة إنسانياً. وفي موقعي هذا، الّذي لاحظه البعض فأرادوا هلاكي، يهمّني أن أتأسّس في موضعي أولاً وأن أنبني ذاتياً وأمتدّ دون تحديد. هذه المقولة الواضحة ترتدّ عليَّ الآن. أحسّ بها ترتدّ عليَّ، ليس بإبهام ولكن لأسباب مبهمة. أسباب مبهمة؛ وأقول مبهمة بالتأكيد، لأنّي لا آخذ الأقوال، بحدّ ذاتها، الّتي نقلتها لي سلمى مأخذاً جدّياً. هي أقوال، رأيتها غير سليمة ومفقودة الأساس. إنّما تلك الصور الّتي باغتتني وهي تتكلّم ـ وكانت تباغتني فيمنا مضى بين الحين والآخر ـ تلك الصور لها شأن غير هازل؛ لأنّها صوري أنا. كنت في السّادسة، في أوّل يوم من أيّامي المدرسية؛ وكنتُ، مساءً، في أشدّ حالات الإعياء، بعد نهار مليء بالانفعالات، فنمتُ في أحضان أمّي سناء والعائلة تتناول العشاء. يا لتلك النّومة، ما أحلاها! وانتبهتُ، ليلاً، على صدى الصرخات يأتي من الغرفة المجاورة المطلّة على النّهر. تملّكني الفزع ولم أستطعْ المكوث في فراشي فقمتُ أسعى إليهما. فتحتُ الباب بحذر. رأيتُ وجه أبي أوّل ما رأيت. تلك صورة أولى. كان وجهاً يوحي بأنّ هذا الرّجل طُعن ألف مرّة في قلبه؛ أصفر في شحوب، مطعوج الملامح، تتراجف عيناه وشفتاه وأرنبة أنفه، ويسيل العرق من جبهته. مسح، في لحظة، وجهه بحركة سريعة من يده، وبدا عليه كأنّه يوشك على النّحيب. امتلأتُ بالخوف من هذه القسمات اليائسة المعذّبة الحائرة، فأغلقت الباب عليهما وركضتُ أختبئ في فراشي. لم يكن هو الّذي يصرخ؛ كان، في خجل، يجهد لتحمّل آلامه. تلك صورة أولى، أخفيها عن نفسي منذ سنوات وسنوات. بل ومع تكرار عمليات

الإخفاء عن النّفس لهذه الصورة وغيرها كثيرة مشابهة لها، زاد اندفانها في ظلمات عميقة لا قرار لها، فخيّل إليَّ أنّي صرتُ في مأمن منها؛ وكنتُ مخطئاً. كانت تحتضنني في ظلام الغرفة، مرتجفة متعرّقة، وهي تردّد، كمن يهذي، كلماتها بهمس: «لا عليك. لا عليك أنت يا حبيبي. لن ينال منّي. أبداً أبداً. أنت ملاكي يا بنيّ وأنا مثلك. أنت لي. أنت لي. ولن أكون لأحد بعدك». أكانت تلك هي كلماتها حقاً؟ أم أنّي أتذكّر، هاذياً، مثلها؟

كان الشّارع مظلماً، يمتدّ إلى ما لا نهاية في ظلامه؛ وكنتُ مرهقاً، أسوق ببلادة، غير قاصد أن أصل إلى أيّ مكان. والصور الشّاحبة هذه، المتبقية من احتراق الدّماء والأعصاب، ماذا يمكنها أن تغيّر من التّاريخ السرّيّ لذاتي؟ هذا هو السؤال، وهو ما يتوجّب أن أضعه أمام حياتي. إنّ الثّبات المدوّخ لتلك اللّيلة الّتي نُوديتُ فيها، لا يمكن أن يمسّه الزّمان؛ لأنّ ذلك هو الأساس المتشخّص الّذي سيعلو عليه الكيان. وسلمى هذه، ذات الغباء المتميّز والعواطف المنحرفة، لن تلقى مني غير الاحتقار والاشمئزاز. إنّها، إذ تتباهى بالمنطق كأنّها هي الّتي شيّدته تجعلني لا أستطيع ابتلاع ندمي، لما بذلتُ من جهد لأسرد بلغتها رؤاي الفائقة. جهد ضائع، لا سبيل لاسترداده. أمّا اصطناعها العطور وبعض المخلّفات الأنثوية البائدة، فهذا شأن آخر سأتفرّغ لتحليله بعد حين. لم يكن ينقصني غير هذا. يالله!

تبدّت لي أضواء ضعيفة في الأفق، فانتبهت إلى ابتعادي أكثر ممّا أريد عن بغداد. لعلّي أخذت طريق بعقوبة صدفة، ولعلّ هذه هي «خان بني سعد». انخرفتُ نحو الرّصيف التّرابيّ واستدرت بحذر ثمّ عدتُ أدراجي.

كنتُ جائعاً، لا أريد أن آكل؛ منهوكاً بالفكر والجسد، ولا أريد أن أرتاح، وكانت هذه الحال تستدعي طلب النجدة. ولم يكن ذلك في مقدوري.

كنتُ أسوق ببطء، مسترخياً في مقعدي كما يجب. يلوح لي أن هنالك، في أفقي، عملية تصفية ذات طبيعة خاصة. أم لعلّها عملية تشذيب الأغصان الذّابلة والميتة، من أجل بعث الحياة في صلب الجسم السّليم. مضحكة هذه الحكايات، ولكنها صحيحة؛ وسأبدأ بها.. ولكن، ما الّذي يجعلها مضحكة هكذا؟ أظنه الابتذال اللّغوي الّذي جرى به التّعبير عنها؛ ليس هو ابتذالاً حسب، بل تهرؤ أيضاً، تضاف إليه ميوعة كريهة وتشرذم يبعث على الغثيان. يا للغة من مجمع غريب لكلّ فضلات القدماء وعرق المحدثين!

في الحقيقة، ما أردت أن أقوله فالتوت بي اللّغة هو أنّ الشّوائب الكثيرة الّتي التصقت برؤاي، قد جعلت من المحتّم عليَّ أن أحدّد جوهري المتألّق دائماً، وأن أقطع عنه كلّ ما أتصل به من تفاهات ورثاثات مقزّزة. هذا هو الأمر.

آنذاك، شاقني، لحظة، أن أتوقّف وسط الظّلمة مندمجاً بها، فانحرفتُ نحو الجهة اليمنى من الطريق وتوقّفت. خرجتُ إلى اللّيل السّاكن البهيم. كانت في الجوّ رائحة الأعشاب والتراب ومسك الهواء؛ والنّجوم البيضاء تتراقص بفرح على فراش اللّيل الأسود. مكثتُ واقفاً أملأ صدري بالنسائم البريئة الصافية. كنتُ وحيداً، ذائباً في دكنة اللّيل النّاعمة؛ وأضواء بغداد اللاّمعة تتراءى لي هناك.. هناك بعيداً. بقيتُ أتأمّلها؛ ثمّ أحسستُ بالسكينة تسربلني رويداً رويداً، مثلما ينسكب ماء من أعلى فيتزلّج على حنايا الجسد. كنت وحيداً حقاً، ولم أكن مضطرباً قط. وحين صعدتُ إلى السيارة ثانية

وأشعلت سيكارة ثمّ اتّجهت نحو المدينة، شعرتُ أنّ يومي الصعب قد انتهى.

تنحني العشبة بذلٍّ أمام العاصفة فتنجو وتقف الشجرة العملاقة بفخرٍ أمامها فتنكسر. كانت تخاطبني مستندة إلى هذا المنطق. حسناً. أين النّقطة المضيئة في مثل هذه الأقوال المنطقية؟ أريد نقطة مضيئة بأيّ ثمن. لا معنى لهذه الحياة، دون نقطة مضيئة صغيرة واحدة على الأقل. لنقل إذن.. انحنت العشبة بفخرٍ، هل يمكننا ذلك؟ سيسخرون، من فوق كلّ المنابر؛ لأنّه قول متناقض، هذا هو السّبب. قول يتناقض ومفاهيم البطولة الأخلاقية السّائدة والموروثة. ما العلاقة ـ الآن ـ بين مفاهيمي الأخلاقية والعشبة المسكينة الّتي تريد أن تحمي نفسها؟ علاقة أسطورية، لو تعلمين، يدافع عنها التّاريخ بطوله وعرضه وبكلّ رجاله ونسائه وما بينهم. ولكني أنا، أنا لستُ من بين المدافعين عن أية مفاهيم. لستُ مع التاريخ ولا رجاله، وأنا ـ أيضاً ـ لستُ مع العشبة ولا مع الشجرة ولا مع العاصفة. أنا، في الواقع، عشبة وشجرة وعاصفة؛ وهناك هوّة عظمى تفصل بين القولين. ولو كنتِ فهمتِ ما بيّنته لك في حديثي، لأمكن أن تلمسي دلالتي لمس اليد. إذ، ما أسهل للبشر أن يكونوا مع العشبة أو أن يعجبوا بوقفة الشجرة أو يهابوا جبروت العاصفة؛ أو، على العكس، أن يدينوا الأطراف كلّها؛ ولكن.. تصوّري أي إعجاز أن تكوني أنتِ هي العشبة وأنتِ ذات الشجرة وأنت العاصفة نفسها. ذلك هو، ما قلته لكِ، التشخّص؛ أن تكوني شخصاً، لا فرداً حسب، مرّة وإلى الأبد.

وبقيتُ على هذه الحال، أتقلّب في فراشي والنّوم يجافيني، وأنا أتحدّث دون صوت مع تلك المعتوهة سلمى. وقع لي ذلك مرتين،

في ليلتين متتاليتين. وها هي ذي المرّة الثالثة تبهظني بعد خمسة أيام من لقائنا، رغم الطعام الخفيف والسكاير والحمّام الفاتر والسّير لمدة ساعتين. ومما أثار حنقي أن تتكرّر الأفكار والخيالات وبعض الصور. صورها خاصّة في مجلسنا الأخير مغلّفة بسريّة الاشتهاء اللّعين. وكنتُ ظننتُ أن يومي الصعب ذاك إذ مضى بسلام أو ما يشبهه، فإنّ مكوّناته ـ أو مكنوناته ـ من تصرّفات وأفكار وكشوفات، لن ترجع مرّات ومرّات، تتقافز بين الذّكرى وردّ الفعل والاستسلام للعاطفة أو للغريزة. ومع العيش الهني الهادئ الّذي كنت أمارسه برفقة والدي وعمّة قادرية، بدت لي فوضاي العقلية والنفسية هذه، أمراً لا يمكن قبوله أولاً ولا يمكن ثانياً إخفاؤه طويلاً.

وكنتُ أريد، كما وعدتُ نفسي، أن أقوم بتنقية الشوائب العالقة بأشدّ قضاياي حساسية، إلاَّ أنّ ذيول اليوم الصعب وتعب اللّيالي البيض والقلق الجديد المتخافي، كلّها تعاونت لتقضي على وقتي الثمين. أنا، في انتظام حياتي، لا أحمل لوماً لأحد. فاليقظة من النّوم ـ ثماني ساعات كان أو ساعتين ـ ثابتة في وقتها، وكذا الذّهاب إلى الشركة والعمل ومواعيد الطعام. هذه الأمور الثّابتة لم يقلقها شيء ما جديّ أهتمّ به. هنالك التوافه بالطبع. لا يخلو منها يوم، ويصعب عليَّ أن أعدّدها بدقّة. ماذا يهمّني أن مدير الشركة صار يقابلني بجفاء؟ بصورة مستمرّة. أو أنّه يسأل ويستقصي عن مقدار حصّتي في الشركة وهل أنا من الشركاء المؤسّسين أم تطفّلت عليهم بشراء الأسهم.. إلخ. وتلك السيّارة الزّرقاء الّتي تتبعني في أوقات غريبة غير مضبوطة؛ مرّة في ذهابي إلى العمل ومرّة في رجوعي منه، وأخرى بعد الظهر، وثالثة وأنا عائد إلى البيت ليلاً. كلّها أسباب توزّعني رغم صغرها؛ وأنا بأشدّ الحاجة لذلك التركيز الشخصاني

الّذي ينفذ إلى الخفايا؛ هذه الخفايا، بعد كلّ حساب، صرتُ أكرهها وأشمئز منها أحياناً. إلاَّ أنّها موجودة رغم أنف الجميع؛ لأنّ الجميع يسخّرون أنوفهم لإيجادها هنا وهناك. ومن جملة الخفايا الّتي كنتُ أمقتها أكثر من اشمئزازي منها، وما كانت تمثّل عندي أمراً يشبه خوارق الطبيعة.. فكرة التحدّث مع الوالد حديثاً حميمياً للكشف عن حقيقة ما قاله خالي رؤوف عن أمّي سناء.

لم يكن ـ هذا الرّجل ـ إلاَّ إنساناً عادياً ذا مواصفات أقلّ ما يقال فيها إنّها مثبطة. لا طموح حقيقياً. لا خيال. لا فكر واسعاً. لا خصب نفسياً. لا موهبة عقلية. لا هوايات مطلقاً. لا تطلُّع إنسانياً. لا عواطف دائمة. وهو، بهذه المزايا اللاّفتة للنظر، رجل محترم من قبل أفراد مجتمعه؛ لا يحوز احترام زملائه القضاة فحسب بل يتمتع بمهابة كبيرة بين بقية النّاس أيضاً. فإذا تبرّعنا بإضافة بعض العقد الاعتيادية إليه (عقدة النّقص المتأتّية من شكله وقصر قامته. العقدة الجنسية بالتأكيد. عقدة الوظيفة والحرص عليها. عقدته أمام المال) وأهمها وربّما أكثرها عمقاً وتدميراً للذات.. عقدته الزّوجية، أمكننا أن نتصوّر أن إشارتي إلى خوارق الطبيعة بشأن التفاهم معه، لم تكن إشارة بغير أساس. ولذلك أبعدتُ هذه الفكرة الخفيّة الّتي دفعتني ـ بشكل غير مباشر ـ إلى وصف أبي بكلام لا يمكن اعتباره حسناً، وجعلتِ الخجل والانزعاج يتطرّقان إليَّ بسبب ذلك. ومع أنّه لم يثبت لي أنّه بعيد عمّا ألصقتُ به من نعوت فقد أبدى على الأقل شجاعة أن يواجه الموقف الّذي تتوجّب مواجهته. كنتُ، تلك اللّيلة، جالساً في صالة شقّتي، أنصت إلى موسيقاي المفضّلة ولا أسمعها، والدّخان يملأ نصف الجو فقط، حينما طُرق الباب برقة ولطف عدّة طرقات كماهي عادة عمّة قادرية. نفثتُ الدّخان من أنفي

وفمي ووجدت أنّ الساعة تشير إلى العاشرة والنّصف فحاولتُ أن أخمّن السّبب الّذي حمل عمّة قادرية على تجشّم الصعود إلى أعلى وطرق الباب في هذه السّاعة من اللّيل. أهو الهاتف، مرّة أخرى؟ ومن يمكن أن يكون المنادي؟ مدير الشركة؟ بالطبع لا. من إذن؟ والدها الدّكتور راغب؟ أكثر تحضّراً من أن يغيّر من سلوكه تجاهي. آمال نفسها؟ أمّها؟ وكنتُ أبعد عن ذهني بإصرار سخيف ذلك الاسم الّذي يقف منتظراً ـ بإصرار ـ أن أدخله في القائمة.

قمتُ وفتحت الباب. كان أبي. مقطّب الجبين، منقلب السّحنة تقريباً، بغير نظارات وفي منامته المخطّطة تلك. تطلّع، متجاوزاً قامتي، في أنحاء الصالة كأنّه يبحث عن شيء معين، ثمّ تكلّم:

ـ أي سجن غريب هذا الّذي تحبس نفسك فيه هكذا؟

ورأيت أنه يسخر فارتحت قليلاً وتراجعت دون كلام فدخل.

ـ هل تعتقد يا هاشم، إنّ الإقامة هنا، في هذه الغرفة، صحيّة لك، مع التدخين المستمرّ الّذي، سبحان الله، تعودّتَ عليه أخيراً؟ أولاد بلاء.. ماذا نعمل؟

ألقى نظرة على النافذة فتأكّد أنها مغلقة، فأبدى مع ذلك إشارة انزعاج وقلق. كان غاطساً في الكرسي الوثير، يضع ساقاً على ساق، وكنتُ أستمع إليه وأنا مازلت واقفاً. لم أحسّ بتعب، وخلال ثانية.. كأنّ صفحة في عمق نفسي انقلبتْ، فأخذت تساورني أفكار ذات وجه مشرق. صارت أقواله، الّتي كانت تراكم عليَّ المصائب والتهديدات، تبعث فيَّ خفة ونشوة ذات طبيعة غريبة. كأنّ هذا هو ما كان هدفي منذ الأزل! كأنّي كنت أسعى، طوال حياتي ودون إدراك، لنيل هذا السخط الجماعي الّذي لا يثمّن! اخترت كرسياً وجلستُ عليه بدعة. كان يسألني ولم أسمعه:

ـ . . . أيْ زواج بلا زواج؟ هل فهمت؟ قل لي هل فهمت؟

ـ ماذا؟

ـ الضرر القانوني. أنت أمام القانون رجل متزوّج، ولكنك في الواقع بلا زوجة، أي زواج بلا زواج! سبحان الله، هذه والله هي أواخر أيام الدّنيا، كما يقولون.

ـ نعم.

ـ لا تقل نعم هكذا كأنك فهمت. هل تعرف معنى أنّك متزوج أمام الله والنّاس والقانون. ولكنك.. بلا زوجة؟ بلا امرأة تعيش معك وتعتني بك وبأولادك، على سنّة الله ورسوله؟ كيف تستطيع أن تعيش شبابك هكذا بدون امرأة بجوارك؟

كنت أتساءل عن الأمر العاجل الّذي دفعه ليأتي في هذه الساعة، ولم أجبه. وصل إلى منتصف الصالة وبقي يتطلّع في نواحيها؛ ثمّ انتبه إلى الموسيقى فطلب مني بهدوء أن أوقفها. لم أكن منزعجاً كما هي العادة حين أكون معه، بل كنتُ مشغولاً بما يضمر لي. طلبتُ منه أن يرتاح على الكرسيّ الوثير، وأخبرته بأنّي سأفتح الشبّاك حالاً، لأنّ الجوّ لطيف رغم لسعة البرد الخفيفة. جلس دون كلام. قصدتُ النّافذة وفتحتها على مصراعيها، فاندفع هواء بارد مشبع برائحة أشجار اللّيل المسكرة.

ـ لا تنسَ أن تغلقها بعد قليل. جئتُ أكلمك لأنّي لم أجد وقتاً آخر أراك فيه. كيف هي أحوال العمل في الشركة؟

أشرت له بما يوحي أنّها تسير كالمعتاد فأخذ يتكلّم عن فترة انتعاش وبناء مقبلة وعن تمنياته لي بأن أكسب منها خيراً وفيراً.

ثمّ صمت لحظات:

ـ كنتُ آليت على نفسي ألاَّ أحدّثك بتلك القضيّة. . قضيّتك، بعد حديثنا التعيس الأخير، لكني. . لا أدري، نحن في محكمة التمييز نجلس ثلاثة أعضاء معاً في غرفة واحدة نشتغل، ونتحدّث أحياناً في أمورنا الخاصّة. أمس، فاتحني عبد الخالق، تعرفه؟ في نفس القائمة معي، قال بأنّه يعرف تفاصيل. . تلك التفاصيل، وأنّه يودّ أن يخبرني برأيه إذا سمحت له. خجلتُ منه في الحقيقة وبقيتُ ساكتاً فقال لي إنّ ابنك يتضرّر ضرراً جسيماً بموقفه هذا؛ إنّه يتضرّر اجتماعياً، في سمعتكم، ويتضرّر قانونياً ويتضرّر مادياً، فهل فكّرتم، قال لي، فكرّتم لأنّه يظنّ أنّنا، أنا وأنت، نفكّر معاً، قال فكّرتم بعاقبة هذا الموقف وأضراره؟ وفي الحقيقة كانت هذه الأمور أمامي وأنا أعرفها خيراً منه.

ثمّ التفتْ إلى النّافذة:

ـ أغلق هذا الشبّاك. لا أتحمّل الهواء البارد. أعود لحديث عبد الخالق. كنتُ أعتقد أنّه سيأتي بأمر جديد لا نعرفه، على كل حال، قلتُ له سأنقل كلامك الثّمين هذا إلى ابني عسى أن يفيد منه لأنه كلام العقل الرّاجح حقاً؛ وشكرته. . ماذا أعمل؟ شكرته بحرارة على حسن رأيه ونيّته.

عاد إليَّ الانزعاج المعتاد الّذي يداخلني وأنا بحضرة أبي، خاصّة وأنا أراه يتمطّق بكلماته بشكل كريه كأنّه يتمتّع بحلاوتها. ثمّ خيّل إليَّ، في لحظة أخرى، أنّي ألمح ظلالاً من الرّضا عن النّفس، تلوح في عينيه.

ـ ولا أدري ما إذا كنتُ بحاجة لتوضيح أقوال هذا الصديق، فأنت تعرف معنى الضرر الاجتماعي والسّمعة الّتي تسوء لسبب أو لآخر. أشياء معلومة للجميع؛ وأضيف إليها أنّ السمعة الّتي تتضرّر من أمرٍ

ما، يصعب كثيراً. . أي نعم. . كثيراً جداً أن يتمّ إصلاحها خلال جيل واحد. النّاس أولاد بلاء كما يُقال، وهم لا ينسون ما يعتبرونه فضيحة أو عملاً يمسّ السّمعة. وتقول لي نعم؟

ما انفكّ يبدو متمتّعاً بحديثه المعقّد، وأنا أزداد انفعالاً كلّما ازداد تجميعه للمصائب فوق رأسي. هذا هو النّوع النادر من الأحاديث الّذي كنتُ أشتاق إليه. إنّه يشير إلى القضيّة الجنسية بشكل واضح؛ قضيته الأساسية.

ـ أمّا الضرر المادّيّ. .

وأخذ ينود برأسه من جهة لأخرى:

ـ فالمصيبة أعظم. لقد بقيتَ عدّة أشهر تنثر نقودك الحلال. . ذات اليمين وذات الشّمال، دون وازع من ضمير، والله على ما أقول شهيد. كأنّك كنتَ تطبّق دروساً من كتاب. . كيف تفلس في سبعة أيام!

لم أستطع إلاّ أن أطلق ضحكة عالية من كل قلبي؛ فمع هذا الشيخ الهزيل الذّابل ذي الملامح المتجهّمة، يصعب أن تسمع نكتة من هذا الطراز.

ـ نعم. نعم.

صارت نظراته صارمة أكثر في تطلّعه إليَّ، غير فاهم بالضبط ما كنتُ أعنيه من ترديد هذه الكلمة.

ـ لا طاقة لي على السخرية دائماً، وأنا أجد صعوبة في الاستمرار بهذا الحديث. لعلّك لا تعلم بأن آمال وأهلها عادوك في المستشفى أثناء ما كنت فاقد الوعي؛ وقبل أيام خابرني والدها الدّكتور راغب ليقدّم لي التهنئة بمناسبة عضوية محكمة التمييز. إنّه إنسان متفوّق،

متمدّن فوق العادة. خسارة. ولا أدري كيف عَنَّ لي أثناء الحديث..

وأخذ يعمل دورات قصيرة في الهواء بإحدى يديه:

ـ أثناء الحديث، كأنّني أردتُ المجاملة أو.. لا أدري.. ربّما تأثّرتُ بأدبه ولطفه فقلت له لعلّ الأمور ترجع إلى سابق عهدها ونعود.. ونعود، لا أدري كيف؛ فإذا بلهجته تتبدّل حالاً.. يا سيدي الكريم، هذا موضوع غير قابل للبحث مطلقاً، وكلّ ما نرجوه ونأمله أن يرأف السيّد هاشم بحال آمال ويطلق سراحها. هذا هو كلّ شيء.

ثمّ وضع ذراعيه متصالبتين في حجره، وزمَّ فمه زمّاً بحيث أخفت شعيرات شاربه البيضاء قسماً من شفته السّفلى. كان ينتظر كلمة مني أو دمعة حرى أو جثوّاً على الأرض، ربّما.

ـ نعم. نعم.

فكوَّر شفتيه كأنّه يهمّ بالصفير وأخذ يتطلع إلى النّافذة:

ـ بالطبع. كان من السخف أن أتوقّع جديداً.

ثمّ قام بحركة سريعة فتبعته. سار إلى الباب ببطء ووقف بجواره:

ـ أنت تخال نفسك يا بني إنساناً قوياً يستطيع أن يقاوم حتّى النهاية، لكن البشر، إذا لم تكن تعلم، ضعفاء عادة، وأنت.. لماذا لا تكون منهم؟ لماذا لا تتصوّر نفسك بشراً ضعيفاً؟ والوقت يمرّ عليك وأنت لا تدري؛ وقد تمرض أو تصاب بشيء لا سمح الله.. وأنا، هل سأبقى لك إلى آخر الزّمان؟

آنذاك، وبغير مقدّمات ولا أسباب زاغت عيناي وتغيّرت الألوان في الجوّ حولي فأظلمتْ لحظة ثمّ أضاءت بعد ذلك، مال وجهه قليلاً واستطالت تقاطيعه، فالتوى الأنف واستعرضت العينان والفمّ ثمّ

ابتعد عني.. ابتعد؛ وحين تكلّمتُ، كان شخص آخر يملك صوتي، هو الّذي هتف.

ـ اسمح لي، أبي العزيز، هل يمكنك أن تجيب بصراحة.. الآن فقط؟ أكنت سعيداً مع.. أمّي سناء؟ أكنت سعيداً معها؟ أجبني. أتوسّل إليك.

تحرّكتْ عضلات خدّيه حركات طفيفة وكوّر شفتيه مرّة أخرى كأنّه يروم الصفير، ثمّ بدت عليه، في نظراته وفي تراجع كتفيه، أمارات ذعر غير مبرّر. استدار وفتح الباب ممسكاً بالأكرة:

ـ نعم.

ثمّ خرج وصفق قطعة الخشب القاسي في وجهي صفقاً شديداً رنَّ صداه في أنحاء الدّار. مكثتُ دون حراك في مكاني، أحصي الأصداء، تأتيني من جواب أبي الوحيد،. الفريد في بابه. صنعتُ من جديد ضبابي الشخصي واستلقيت على أريكة في زاوية من الصالة، أستمع بشغف إلى «لَيْلِيّاتي» البالغة الرقّة، الحالمة، الحزينة، المتأمّلة. كان الكرسي الوثير فارغاً، كريهاً في فراغه، وكنت أدخّن باطمئنان غير مبال بشيء؛ ففي أعماقي الدّائمة الاضطراب، التقى قطبان لا يتشابهان فاتّحدا وبعثا الأمان والرّحمة في كوني كلّه. أوّلهما كان.. تلك اللّيلة.. أراها الآن بمنظار آخر؛ وثانيهما مشاعري المتغيرة وأنا أسمع منه أفكارهم. هناك جامع بينهما. جامع سرّيّ لا يكشف عن اسمه لأحد. وما اتّحد القطبان رغم اختلاف الزّمن والماهيّة إلاّ لأنّهما ينبعان من أصل واحد هو الكلّ والكلّ هو.

ففي قمّة انغماري مع البشر في أعيادهم، ليلة عرسي، ماذا كان..

من كان.. ما الّذي أمسكني من عنقي وجرّني جرّاً خارج المدار العامّ، أتفيّأ مطراً في طين المقابر، مدفوناً بين الجثث؟ وفيم ينبوع الغبطة والابتهاج يفور من داخلي ويغرقني وهو قبالتي يمتح الأخطار والمآزق والشرور من بئر ناسنا هؤلاء، ويشهرها في وجهي.. في وجه ابنه؟

كنتُ مطمئناً بارد القلب إذن؛ فقد وصلتُ إلى نهاية الطريق فجأة وأمسكتُ، عن قرب، بما كنتُ أبحث عنه. لقد نفضتُ عني تلك الأفكار الّتي راودتني في أن أتقصّى أقوال ذلك المجذوب خالي حفاظاً على نقاء صورة أمّي سناء؛ أو أن أتجاذب الأحاديث مع الطبيبة للوصول إلى غايات نبيلة.

الآن، مستقلياً وسط الضباب، لاغياً نفسي في الاستماع إلى الموسيقى، أحسّ بأنّي أنا الّذي كان وأنا الّذي سيكون.

أنا، في الحقّ، لم أعِ إرادتي الأولى في النزوع؛ إلاّ أنّني، هذه اللّحظة بالذات، أنا الّذي أراد ويريد، وأنا الآن الّذي سيريد، مستقبلاً وإلى أبد الآبدين. وكنتُ أدخنّ.

كان الصباح صباحاً ربيعياً رغم المزنة الّتي أشاعت في الجو رائحة التراب والأزهار؛ والشّمس الّتي قفزت كالطفل بين الغيوم كانت شمس نيسان، شمس الرّبيع بذاتها؛ وكان زجاج السيّارة ملوّثاً بالغبار المبلّل والماسحة تعمل بهمّة لتنظيفه، وكنتُ متوجّهاً، غير منشرح النّفس، إلى مقرّ الشركة.

منذ أسبوع، ليلة جاءني يسعى للحديث معي، ووالدي لا يوجّه إليَّ الكلام؛ واليوم عند نزولي بصخب سلّمنا الضيّق وأنا أنشد لحناً أوبراليّاً، مَرَّ بي مشمئزاً وخرج من المطبخ دون أن يردَّ عليَّ تحية

الصباح. كان ذلك بالفعل مدعاة للحبور ولفتح الشهيّة للطعام، لولا أن أخبار عمّة قادرية ذلك الصباح لم تكن، كعادتها، غير مثيرة للشجن. فمنذ أوّل أمس عرف والدي بأنّ خالي رؤوف وقع مريضاً مرضاً لا يبدو أنّه ـ بمساعدة دار العجزة ـ سيقوم منه؛ ولم يخبرني شماتة بي، وذهب يعوده عصر أمس وعاد يصف حاله لعمّة قادريّة ويزداد حنقاً عليَّ وشماتة بي. لم أستطع السخرية. تملّكني أسىً غير مفهوم وأبعدتُ عني الطعام. كنت مرتبكاً بشقائي. لبثتُ ساكتاً، انظر إلى جهة أخرى من المائدة. كان بودّي أن أفكّر بسكينة تامّة، لكن فوضى العواطف هذه أخذت بخناقي.

شربتُ كأس ماء. سمعت عمّة قادرّية توصيني بزيارته قريباً، فهززتُ رأسي موافقاً؛ وإذا بها تعلن لي أنّ والدة آمال خابرت كعادتها بين فترة وأخرى، وأنبأتها بأنّ دكتورة سملى دخلت المستشفى منذ حوالي أسبوعين.

ـ . . منذ أسبوعين تقول أو عشرة أيام. لم أفهم. لا أدري كيف تتكلّم هذه المرأة. انهيار، تقول؛ وتحتاج إلى الراحة التّامّة، الرّاحة التّامّة، قالت. إنّما خبّرني يا هاشم. . الانهيار هذا، أليس هو الرّاحة التّامّة؟

قلت لها وأنا أعود إلى فطوري:

ـ لا أدري، ولكن كان عليك يا عمّة أن تخبريني بهذا قبل ذاك.

ـ إي نعم؛ كل فطورك يا بني، ففي هذه الأيام المستعصية صارت الأذواق تتدخّل حتّى في المرض! سبحان الله.

وصلتُ مقرّ الشركة في موعدي تماماً وجلستُ إلى مكتبي عازماً على النسيان والعمل؛ لكنني لم أقدر على أيّ منهما. شربت فنجاناً ثانياً من القهوة السوداء وتمشّيتُ وتطلّعتُ من الشبّاك بين الحين

والحين. كانت السّماء في زرقة بنفسجيّة، تترقرق؛ وكنتُ مكتئباً من فكرة زيارة خالي ورؤيته على فراش الموت؛ ومن شبح فكرة أنّ سلمى في المستشفى قد.. قد تنتظر أو تأمل ـ في السرّ ـ أن أزورها وأن أبدي لها كم أفهم أسباب هذا الانهيار أو ذاك. وكان الأفق ممتلئاً بغيمة سوداء منبعجة، والرّيح تتضارب مع خشب الشبّاك المفتوح. ما جدوى كلّ هذا؟

تتمازج أحياناً أسئلة من هذا النّوع، مع هبّة غبار أو صورة شجرة أو نبرة كلمة أو همس غير مفهوم؛ ما جدوى أن أذهب وما جدوى ألاّ أذهب؟ وما جدوى الاثنين في تقابلهما؟

هنالك من يجد دلالة في نفس عملية توجيه الأسئلة هذه، وأنا أكره هؤلاء؛ وهنالك من يحترم فيك شيئاً ما مجهولاً، ويترك لك بحياد حرّيّة أن توجّه ما تشاء من الأسئلة. إذ، ما دمنا بشراً فلا حقّ لأحد أن يحرمنا من العبث، بمعناه البسيط والآخر المعقّد. طلبني مدير الشركة بطريقة غير مؤدّبة. أرسل من يستدعيني. لم يكن لديه شيء هامّ يقوله لي، وكان يتحاشى النّظر في وجهي ويقطع جمله وأحياناً حتّى كلماته. أمر غريب. كان منزعجاً من خرائط وتصميم كنتُ قدّمتها له منذ شهرين تقريباً للاطلاع عليها. بدا عليه أنّه يكرهها ويريد أن يحرقها على رأسي؛ أعادها لي قائلاً إنّها غير صالحة. كلّها، كلّ شيء فيها؛ حتّى الورق والقلم. تناولتها من فوق مكتبه الضخم. شعرتُ ـ لسبب غامض كالعادة ـ بأنّي غريمه وأنّه، في دخيلته، يخشى مني، ربّما. تملّكتني رغبة في الضّحك كتمتها بالطبع، ووقفت متصلّباً باحترام منتظراً أن يضيف هذا الأحمق شيئاً إلى ما قاله. وطال وقوفي وطال انتظاري؛ أكثر من خمس وأربعين ثانية. حوالي دقيقة كاملة. ولم أعرف أنّي كنتُ أنتظر إهانة أخرى

منه، إذ لو عرفتُ.. لمضيتُ في سبيلي بالتأكيد، فقد كنتُ أكثر كآبةً من تلقّي إهانات لا سبب لها. رفع بصره وسألني كأنّه يراني لأوّل مرّة:

ـ نعم؟!

مضيّقاً عينيه. استدرتُ وخرجت، على مهل، من الغرفة. بعد هذه المقابلة قرّرتُ أن أزور خالي وأتعرّف، مرّة أخرى، على وجه الموت؛ وأن أتصل بمن يعلم عن المستشفى الّذي ترقد فيه سلمى.

ليس الإنسان إنساناً دون شروط أو امتحانات؛ لأنّ الحالة الإنسانية، المعترف بها، ليست حالة آلية، تلتصق بهؤلاء الّذين نسمّيهم بشراً منذ أن يُخلقوا ولا تفارقهم حتّى وهم تراب. هذا الوضع مرفوض ولا يطاق. فمادمنا بمفردنا هنا، وكلّ شيء.. الكلّ، معجون، في الواقع، بأفعالنا، وجب أن تكون الحالة الإنسانية بشروط وألاّ تُنال مجاناً مثل منحة من لا أحد، أو لقية في الطريق العام. إنّ الصعود إلى الحالة الإنسانية ثمّ التشخّص، يمرّ عبر تجربة تفتيت وانصهار ليس لها حدود؛ وهو الخطوة الأولى لتمسك الرّوح بذاتها ولتشعر بالامتداد والحريّة. والتّعبير الهندسي عن هذه الفكرة يتبسّط في خطّين.. أوّلهما عموديّ مستقرّ بمستوى الأرض، والآخر، في نهايته، يمتد أفقياً إلى ما لا نهاية. أسفل الخط العمودي إشارة حمراء هي رجة (أو خضّة أو ارتجافة) الحياة الحيوانية الأولى. وبالتقاء هذا الخطّ الصاعد بالخطّ الأفقي الممتدّ إلى كلّ الآفاق، هنالك إشارة ثانية تختلف في لونها عن الإشارة الحمراء الأولى. هذه الإشارة هي رجّة الشخص؛ وبين الإشارتين يقوم طريق الصعود بالنسبة للبعض؛ وهو طريق صعود وهبوط في الوقت نفسه، لأنّه طريق الشروط القاسية. البعض يتواصل صعوده حتّى يلتقي بالإشارة

الثّانية ليبدأ بعدها طريق الامتداد إلى الآفاق البعيدة؛ والبعض الآخر أو الأغلبيّة السّاحقة المبكية، تتراخى في طريق الصعود وتتباطأ وتنتن وتزداد نتونة وهي تتراجع إلى الأسفل، فلا يصير الطريق طريق صعود بل طريق أوساخ ونفايات كريهة.

جلستُ ألقي نظرة على تصحيحات المدير لتصاميمي الّتي أعادها إليَّ قبل ساعة. كنت هادئاً، أفتّش بجدٍّ عن أخطائي. وجدته يستعمل الحبر الأحمر. كان ذلك شيئاً جديداً ذا سطوة. ولعلّه وجده مثلي ذا سطوة فاستعمله أسوأ استعمال. لم يكن يكتفي بملاحظات صغيرة أو يقترح تعديلات أو حذف بعض أقسام الخرائط، بل يشطب على أغلبها بخطّين أحمرين متكرّرين. كأنّي به ذلك الفارس المضحك «زورو» يضع علامته المميزة على جبيني! ثم يذيّلها بعبارة.. لا تصلح.

لم يغمّني السيّد المدير بهذه الأعمال ورضيتُ أن أراجع أوراقي طوال ما بعد الظهر. كان همّي أن أفيد منه رغم أنفه؛ إذ إنّ ذلك الشعور الغريب الّذي تلبّسني وأنا أمامه وأوحى لي بأنّه، ربّما، يظنّني غريمه، كان لايزال يتملكني. غير أنّ عملاً تافهاً بدر منه وترك آثاره على الورق، ضايقني كثيراً، حتّى فكّرت أن أعود إليه.. فبلامبالاة واضحة، وجدتُ رقماً صغيراً مسجلاً بالأحمر على حافة إحدى خرائطي. لاشكّ أنّه رقم هاتف أو ما أشبه، لم يجد مكاناً يسجّله عليه غير تلك الخرائط المسكينة. لبثت أنظر إلى هذه الأرقام الصمّاء، فخطر لي، دون سبب، أنّ البشر لا يفكّرون أبداً بالطريقة الّتي سيموتون بها؛ ولا في أيّ مكان سيقع فيه هذا الحدث الفذّ الّذي ليس وراءه من أحداث. وخطر لي بعد ذلك أنّ الرّوح وحدها هي الّتي تموت، أمّا الجسد فيفنى؛ ذلك أنّه مركّب منذ البداية بشكل

يحمل معه لبنات فنائه. ويبقى موت الرّوح أمراً يفاجئ الإنسان المتشخّص؛ لأنّه نقيضها، مثل الجسد؛ وهذه هي أزمة الرّوح الأزليّة. إنّها محشورة بين الجسد، الّذي لا يمكنها الاستغناء عنه لتتشخّص، وبين الموت الّذي يأتي غيلة عبر هذا الجسد. لذلك يكون من حقّ الرّوح أن تقلق على الدّوام وأن تجزع؛ فجوهرها الفذّ الخالد أُوقِعَ به في أحبولة الجسد وأُدخل عن طريقه ساحة الفناء. شعرت بنفسي جائعاً جوع الذّئاب وأنا أرمي بآخر خريطة مشطّبة بالأحمر. اتصلتُ بالبوّاب هاتفياً ثمّ نظرتُ إلى ساعتي فإذا بها تقترب من السّادسة مساءً. يا للأفكار.. كم تستحوذ على الإنسان! طلبتُ طعاماً خفيفاً من مطعم صغير افتتح قريباً من مكتب الشركة؛ ثمّ انتبهت إلى أنّ الشّمس آلت للمغيب والوقت قد فات على هذه الأكلة الخفيفة فألغيتها وسألت عن المدير فقيل لي بأنه غادر منذ أكثر من ساعتين.

عدتُ أرتّب أوراقي وأفكّر في الزّيارات الّتي يجب أن أقوم بها. نظرتُ إلى الخارج؛ كان الوقت جميلاً والضوء خافتاً مريحاً للعين، والسماء مستقلية في ردائها الأزرق الشفّاف وأنا حزين بعض الشيء. ليس سهلاً أن أواجه خالي رؤوف وأن أراه وأكلّمه، ولكني أعتمد على محبّتي السّابقة له وعلاقته الخارقة بأمّي سناء، كي أتغلب على حرج عواطفي السلبية. أمّا سلمى.. فيجب أن أسأل عمن يعرف مكانها. إنّ زيارتها أمر مختلف، رغم أنه لا يقل تعقيداً. لعلّها لم تدر بمرض خالي الأخير. لا حلّ، إذن، غير الاتصال بمن يوجد في الدّار من أهلها أو من الخدم. رفعتُ السمّاعة وأدرتُ رقم هاتفها. وعلى هذا الأساس، فإنّ الرّوح لا يُنال منها، رغم الجسد والموت. كان الجرس يرنّ في مكان ما. فإذا أمكن بقاء الرّوح وخلودها، فإنّ

لدى الإنسان، بعد كلّ حساب، أملاً واهناً بأمل ضعيف في ألاّ نصير ونبقى تراباً تراباً. مازال الجرس يرنّ بإصرار هناك، دون جواب. ومهما يمكن أن يقال عن الأمل، فهو بتركيبه وصيغته ولفظه، شيء لا علاقة له باليأس؛ وبه، على الأقل، تكون البداية. أعدتُ السمّاعة إلى مكانها. لا أحد في البيت هذه السّاعة. ربطتُ خرائطي في حزمة حملتها مع أشيائي الأخرى وخرجت من الغرفة الّتي أظلمت قليلاً. كان الشّارع خالياً كالعادة. رأيت سيّارتي على مبعدة، مركونة في السّاحة الصغيرة القائمة أمام مقرّ الشركة. ستكفيني قطعة خبز مع الجبن حتّى العشاء، وقليل من الشّاي والحليب. أخرجت علبة سكائري، ثمّ أعدتها حالاً إلى جيبي. كان فمي يابساً ومعدتي تتلوّى.

لم يكن خالي رؤوف محقّاً في سعيه بعناد لتحطيم صورة أمّي سناء في نفسي. كان عملاً كاريكاتورياً مجانياً. ولعلّ سلمى أرادت أن تقنعني بأقواله من أجل أن تنال ما تهدف إليه بعد ذلك.

كانت السّاحة الصغيرة منعزلة خالية تشوبها الظّلمة. لاحظت بجوار سيّارتي مباشرة سيارة أخرى سوداء طويلة، خيّل إليَّ أنّها ليست غريبة عن خاطري. لم أعرف نوعها، وكانت مغلقة ضبابية الزّجاج.

فتحتُ باب سيّارتي ورميتُ بأشيائي إلى الدّاخل ثمّ جلستُ في مكان السّائق وأغلقتُ بابي. عند ذاك، سمعتُ باباً يصفق بجواري وانتبهتُ إلى شخص يخرج من السيّارة السّوداء ويسير بهدوء متقدّماً نحوي. وضعتُ مفتاح التشغيل في مكانه وأنزلت الزّجاج بجواري دون اكتراث وأردت أن أدير المحرّك. وقف منحنياً بعض الشيء بجوار الباب بحيث اقترب وجهه الأصفر الشّاحب مني بشكل مزعج

رجل في ملابس سوداء وقميص أزرق غامق؛ قصير شعر الرّأس، ذو ملامح جامدة لا تنبئ بشيء. ابتسم في وجهي بتهذيب شديد:

ـ الأستاذ هاشم السّليم؟

كانت في لهجته لكنة لم أستطع تحديد أصلها. نظرتُ إليه، في عينيه؛ كانتا صغيرتين سوداوين باردتين. لم يعجبني أن أجيب. كان بإمكاني جسدياً أن أصدّ الشرّ الّذي قد يبدُر منه ضدّي. كرّر:

ـ العفو.. الأستاذ هاشم.. بنفسه؟

ولسبب مبهم، هززت له رأسي بالإيجاب. لم تأخذ منه عملية إشهار المسدس وتصويبه بثبات إلى جبهتي، إلاّ جزءاً من الثّانية. رأيتُ عينيه الميتتين، متوجّهتين نحوي، ولمحتُ ارتجافة خفيفة أسفل إحداهما. لم يبقَ من كلام آخر وكنتُ.. كنتُ بمفردي..

أريانة ـ تونس
١٩٩٣

أمر آخر.. أمر آخر؛ هكذا ألفّ وأدور ثم أرجع لأموري الأخرى. نعم، هو أمرٌ من الأمور الأخرى، وهو أمرٌ ثمين نادر الوجود عسير المنال. حدّثتها قليلاً عنه في جلستنا الفريدة قبل أيّام. بدتْ لي على وشك الفهم، ثمّ قلبتْ وجهها وانصرفتْ عنّي تكلّمني عن شؤون الدّنيا الرّخيصة. إنّها.. ما أقساها! اضطربنا، أنا وآمال، وسط معمعة الأهل والأقارب وصراخ الأطفال وزغاريد النّساء، فلم يستطع أيٌّ منّا وضع أحد خاتَمي الخطوبة في أصبع الآخر فانبرت هي لها، برزتْ من تحت الأرض وهتفتْ بابنة عمّها أن تدفع أصبعها بقوّة لإدخال الخاتم!

وبسبب هذه النّظرة الّتي تفسّر نظام الأشياء الطبيعيّة من أجل أن تحشره في نظامها المصطنع، يتحوّل خاتم الذهب الخالص إلى خاتم من رمل، وتفسد العلاقات.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف: نجاح طاهر